COLUMBIA UNIVERSITY
LIBRARIES

From the library of
Edward W. Said

توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

الطبعة الرابعة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة النموذجية
٦ سكة الباشوى بالحلمية الجديدة

توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

الطبعة الرابعة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

GIFT
SAID
PJ
7828
.K52
U8
1951g

كتب للمؤلف

نشرت فى اللغة العربية

محمد	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)
شهر زاد	الطبعة الأولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
أهل الكهف	الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣) الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣) الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠) الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥) الطبعة الخامسة: (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)
عودة الروح فى جزءين	الطبعة الأولى : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣) الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)
تحت شمس الفكر	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)
تاريخ حياة معدة	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

عهد الشيطان
- الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

براكسا أو مشكلة الحكم (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)

راقصة المعبد
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)

نشيد الأنشاد (مطبعة مصر عام ١٩٤٠)

حمار الحكيم
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

سلطان الظلام
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

من البرج العاجى (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)

تحت المصباح الأخضر (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)

بجماليون
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

أهل الفن (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

مسرحيات
المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف .
(مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

القصر المسحور بالاشتراك مع الدكتور طه حسين باشا
(مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)

مسرحيات
المجلد الثانى : ويشمل قصص : الخروج من الجنة أو الملهمة . امام شباك التذاكر . الزمار . حياة تحطمت .
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

يوميات نائب فى الأرياف
الطبعة الأولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثانية لحساب وزارة المعارف العمومية
(مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثالثة (طبعة مدرسية)
(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

عصفور من الشرق
الطبعة الأولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

سليمان الحكيم { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

زهرة العمر { الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

رصاصة في القلب : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

الرباط المقدس : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)

حارى قل لى : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)

شجرة الحكم : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)

الملك أوديب : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

قصص توفيق الحكيم : المجموعة الأولى والثانية
(مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)

مسرح المجتمع : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)

كتب للمؤلف

نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد

ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . فى دار نشر (نوفيل ايديسيون لاتين) وترجم الى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلندن ، ثم فى دار النشر (كراون) بنيويورك . فى عام ١٩٤٥

عودة الروح

ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥ . وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فلاماريون) للنشر . وبالانجليزية ونشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢

يوميات نائب فى الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية)
وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥
وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧
وترجم إلى الاسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية
ثم ترجم إلى الايطالية بروما عام ١٩٤٠

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة أجنبية

عصفور من الشرق } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

أوديب : « « « « « « « « «

سليمان الحكيم : « « « « « « « « «

نهر الجنون : « « « « « « « « «

عرف كيف يموت : « « « « « « « « «

المخرج : « « « « « « « « «

بيت النمل : « « « « « « « « «

الزمار : « « « « « « « « «

(فى مجلد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر
« نوفيل ايديسيون لاتين بباريس »)

إلى

حاميتى الطاهرة

السيدة زينب

الفصل الأول

مطر غزير قد ألجأ الناس إلى مظلات المشـــارب والحوانيت، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو. ولم يبق فى ميدان « الكوميدى فرانسيز » غير مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض فى شبه عباب . آدمى واحد ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير الهوينا غير حافل بشىء ، عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان وهى زاخرة بالماء ، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئاً كالبلح ويلفظ شيئاً كالنواة ، ويده اليمنى كالرسول الأمين من جيبه إلى فمه تواتيه بالمدد فى غير انقطاع . هذا الآدمى فتى نحيل الجسم أسود الثياب ، على رأسه قبعة سوداء عريضة الأطار فى قمتها فجوة غائرة كطبق الحساء قد امتلأت بماء المطر .

وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها إلى جانب آخر من الميدان يقوم فيه تمثال الشاعر « دى موسيه » وهو

يستوحى عروس الشعر . فوقف الفتى ينظر إليه وقد نقش على قاعدته « لاشيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم » ثم تطلع إلى وجه الشاعر فألفى قطرات المطر تتساقط من عينيه كالعبرات. فتحرك قلبه ، وسكت فمه ... ثم همس مردداً كالمخاطب لنفسه:

— لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ! نعم ...

ومرت فى رأس الفتى صور من ماض بعيد ... ثم همس :

— حتى هنا أيضاً يعرفون هذا ! . .

وغرق فى التفكير . وغرقت قبعته فى الماء ، حتى فاض فسال على وجهه . وإذا صوت خلف ظهره يصيح به :

— أراهن بمائة فرنك أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا التمثال إلا أنت !

فاستدار الفتى سريعاً :

— أندريه !

— قبل كل كلام ، انج بى وبنفسك من هذا المطر . ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل !

— بل هذا وقته، تأمل يا أندريه! هذه الدموع فى عينى الشاعر!

— لو لم يكن هذا الشاعر من رخام لولى الساعة هارباً هو وعروسه إلى أقرب قهوة، وتركاك وحدك وسط هذه المياه ...

ولم ينتظر الفرنسى جواباً من صاحبه، بل جذبه إلى مظلة قهوة « اريجانس » القريبة، ثم نظر فى وجهه فوجد فمه يتحرك:

— عجباً! ماذا فى فمك؟

فلم يجب الفتى. ولفظ من فمه نواة وقعت فى الماء الجارى إلى « البلاليع » فصاح به أندريه:

— تأكل بلحاً!

— نعم، وفى شوارع باريس!

— آه أيها العصفور القادم من الشرق!

— فى مصر نسميه « عجوة »، هذا النوع من البلح. إنى أتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب! وأتخيل هذه النافورة ... ذلك « السبيل » بنوافذه ذات القضبان النحاسية ..

— كفى تخيلا . تعال . . لقد سكن المطر . .

— إلى أين . .

فلم يجب أندريه . . وأخذ ينظر إلى ملابس الفتى ويتأمله من قبعته السوداء ومعطفه الأسود ورباط عنقه الأسود إلى حذائه الأسود ثم قال :

— عظيم جداً .

— ما هو العظيم جداً ؟ !

— إنك الآن خير من يصلح للذهاب . .

— إلى فاتنتى الجميلة . .

— بل إلى المذافن . . . هلم معى لتشييع جنازة زوج بنت مدام شارل ! إن عليك « طقم » حداد كامل . لكانى بك دائماً على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات ! إنه ليسرنى أن أصحب مثلك إلى هذه النزهة القصيرة !

— النزهة !

قالها الفتى وهو ينظر إلى صاحبه شزراً ، ولكن صاحبه

تجاهل النظرة وجذبه من يده :

— تعال نؤدى معاً هذا الواجب . . .

— نحو من ؟ . .

— نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل !

— ومن هى أولا مدام شارل ؟

— هى والدة أحد زملائى فى المصنع .

— وما ذنبى أنا ؟

— ذنبك أنك صديق ! فلتتحمل ما أتحمل . لاشىء يثقل على نفسى مثل المشى صامتاً خلف عربات الموتى ! سنتحدث على الأقل سويا فى شئوننا . . بل فى شئونك أنت ، إنى أعدك وعداً صادقاً بالحديث طول الوقت عن فاتنتك ذات الأنف الذى تقول إنه غير فى نظرك المثل الأعلى للأنف الجميل ، وقلب فى رأسك كل الصور والأوضاع التى كنت قد تخيلتها للجمال !

— نعم ، نعم . لقد كنت أعتبر الجمال . . .

وانطلق الفتى يتكلم متحمساً . . ولم يفطن إلى أندريه وقد قاده من ذراعه ونزل به إلى إحدى محطات المترو ، وابتاع له تذكرة فى الدرجة الثانية ، وأركبه قطاراً مرق بهما فى جوف الأرض مروق لسان محسن بذلك الحديث اللذيذ. وابتسم أندريه آخر الأمر فى خبث ابتسامة من يقول فى نفسه : « إن معى الآن مفتاح قياده فلألوحن له « بها » يتبعنى صاغراً بغير أن يشعر إلى أقاصى الأرض ! . . »

* * *

دقت نواقيس كنيسة « سان جرمان » احتفالا باستقبال الجثمان . ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد . ولم يكن بباب الكنيسة أحد غير « محسن » . فقد تركه « أندريه » عند الباب وذهب يشترى مظلة ، يتقيان بها المطر أثناء السير فى الطريق من الكنيسة إلى المقبرة . وأبطأ أندريه على صديقه . وبدت طلائع الجنازة . واشتد دق النواقيس. ثم فتح باب الكنيسة على مصراعيه واقتربت عربة الموتى تتهادى حاملة التابوت

ثاويا تحت باقات الزهر . وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم . ووقفت العربة . وحمل التابوت إلى داخل الكنيسة . ومرت أفواج المشيعين بمحسن فى ملابسه السوداء الكاملة فانحنوا له حاسبين أنه من أهل الميت الأقربين . هنا أدرك الفتى حرج موقفه . فأسرع واندس فى فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت الحقيقيين والناس تنحنى له . فيظنون بشأنه الظنون .

دخل محسن الكنيسة . ولم يكن قد دخل كنيسة قط . ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى . ولا رأى ما يجرى فيها من المراسيم ولا ما يتبع من الطقوس . فأحس برهبة . وخيل إليه أنه باجتيازه العتبة قد ترك الأرض وارتقى إلى جو آخر ، له عبيره وله نوره . هنا أيضاً عين الخشوع وعين الشعور الذى كان يهز نفسه كلما دخل فى القاهرة مسجد السيدة زينب . هنا أيضاً عين السكون ، وعين الظلام فى الأركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح فى

جو المكان ! إن بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وكل زمان.

وضع التابوت فى الصدر وأضيئت حوله الشموع . وأخذت أصوات الرهبان تعلو مرتلة الصلاة على أنغام الأرغن . ثم تقدم الناس فى صف طويل نحو التابوت يمرون به ، الواحد تلو الآخر ينضحونه بماء مقدس من « قمقم » فضى . ومشى محسن فى الصف ذاهلا خائفاً أن يحدث صوتاً على أرض الكنيسة ، وانتبه قليلا فرأى القمقم فى أيدى من أمامه فى الصف يرسم به الواحد علامة الصليب وهو ينضح به الميت ، ثم يسلمه فى صمت إلى من خلفه ، وراقب الفتى هذا الفعل يتكرر أكثر من خمسين مرة وهو يحسب الف حساب لنوبته وأذهلته الرهبة فما راعه إلا القمقم يسلم إليه ممن أمامه فتناوله بيد ترتجف ، ولوح به نحو التابوت راسماً فى الهواء علامة لايدرى من فرط اضطرابه أدلت على صليب أم على هلال . ثم نضح التابوت على نحو خشى معه أن يكون قد أكثر فبلل الغطاء . ولكنه فرغ من مهمته على أى حال.

فتنفس الصعداء ومد يده بالقمقم يسلمه إلى من يليه . فلم يجد خلفه أحداً . كان هو الاخير فى الصف يالكارثة ! ما العمل! وحار وارتبك بهذا القمقم فى يده لايدرى ما يصنع به وقد اشتغل عنه القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج وتصبب العرق بارداً من جبينه . إنه يحمل فى يده شيئاً مقدساً . كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه فى شىء مملوك لله داخل بيت الله ! إنها لمسؤولية عظمى ! ولمحه أحد القسيسين فى هذا الموقف فبادر إليه وحمل عنه العبء . فانصرف الفتى وكأنه يقول فى سذاجة : « ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل تلك التبعات فى إدارة ممتلكات السماء ؟ » . وأسرع محسن إلى اللحاق بالصف كى يعزى أهل الميت فما كاد يتقدم إليهم فى ملابسه السوداء حتى حملقوا فيه كأنما هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم الذى أتى يشاركهم مصابهم فى ثياب حداد كاملة لم يرتد مثلها بعض أقارب الميت ولا ذويه ! وأعياهم التذكر

وفهم محسن مايجول بخاطرهم فلفظ سريعاً بضع كلمات غير مفهومة وانطلق إلى الخارج . . . فوجد أندريه واقفاً تحت مظلة جديدة بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت .

ورأى الفرنسى صديقه فابتدره محملقا فى وجهه :

ـــ مالك أصفر الوجه !

فلم يجب محسن بغير قوله :

— اذهب وادفن زميلك . أما أنا فانى أنتظرك فى قهوة « الدوم » .

واختفى سريعاً قبل أن يترك لاندريه وقتاً للكلام . . .

* * *

جلس محسن وصاحبه أندريه فى قهوة « الدوم » بحى مونبارناس ، وهى ملتقى أهل الفن من مصورين ومثالين وشعراء . وهى من أجل ذلك ذات شهرة وصيت . وهبط فى ذلك العام سعر الفرنك الفرنسى فهبط باريس سائحون كثيرون أغلبهم من الأمريكان انتشروا كالذباب فى كل مكان...

وطلب محسن قدحاً من عصير البرتقال ، جعل يرشف منه فى بطء من خلال ذلك العود المجوف من القش ، وطلب أندريه كأساً من « البرنو » أخذ منه جـــرعة ثم التفت إلى صديقه قائلا :

— أتدرى أين دفنوا زوج بنت مدام شارل ؟

— لا أريد أن أعرف أين دفنوه .

— لماذا ؟

فضاق محسن ذرعاً :

— وبعـــد ؟ أخبرنى بحق ربك ، متى تعتقنى من هذا المدعو زوج بنت مدام شارل ؟! أما كفاك أنى صليت على روحه فى الكنيسة ، ونضحته من القمقم المقدس! .. آه! إنى لن أغتفر لك هـذا التهاون منك ! إنك كنت تعرف انى داخل هذا الحرم المقدس ولا تقول لى حتى أعد نفسى ...

فابتسم أندريه وقال :

— أيها العصفور الشرقى ! تعد نفسك لدخول الكنيسة!

ما معنى هذا ؟ ... إنا ندخلها كما ندخل القهوة . أى فرق ؟؟ هناك محل عام وهنا محل عام . هناك الأرغن ، وهنا الأوركستر ...

فلم يلتفت إليه محسن وهمس كالمخاطب لنفسه :

— بل هناك السماء ! وليس من السهل على النفس الصعود فى كل لحظة .. إنه لمجهود ! ...

فلم يبد على الفرنسى أنه فهم عن محسن . ولم يكلف نفسه عناء سؤاله ، ورفع كأسه وجرع جرعة أخرى . ثم أشار بطرف عينه إلى أمريكية حسناء جالسة مع أسرتها على مقربة منهما ، وهى لا تفتر عن النظر إلى من حولها من فنانين ، ووقعت عيناها آخر الأمر على محسن فى ثيابه السوداء ، فغمزت من معها وهمست إليهم بكلام .

ولحظ محسن نظراتها فقال لأندريه فى صوت منخفض :

— لماذا يرمقوننى هكذا ؟

— يحسبونك من أهل الفن بهذه القبعة وهذه الملابس .

— إنهم ينظرون إلىّ كما ينظر الانسان إلى طائر غريب! أولم يروا فناناً قط ؟ يخيل إلى يا أندريه أن هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمنت المسلح لاروح فيهم ، ولا ذوق ، ولا ماض . إذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت فى موضع القلب « دولار » . إنهم ليأتون إلى هذا العالم القديم حاسبين أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا ، ولبلادهم ماضيا ! .

ولم يظهر على أندريه أنه أصغى إلى كلام صديقه كله . فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية :

— أهذه بربك من الأسمنت المسلح !

— لاتطل إليها النظـــر هكذا . و إلا قلت لزوجتك « جرمين » !

فهز الفرنسى كتفيه ومضى فى إظهار إعجابه :

— تأمل هاتين العينين الزرقاوين كأنهما فى لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !

ـــ كلا . بحيرات الجنة فى لون الفيروز !

ـــ أيها المفتـون ! إنك لاترى غير عينى فاتنتك التى لاتعرف اسمها !!

فنظر محسن إلى الفضاء باسماً سابحاً بخياله ثم قال :

ـــ أعرف صوتها . وهذا ليس بالقليل . . . ليلة الأمس فى الأوبرا . .

ـــ كنت فى الأوبرا ؟

ـــ اطمئن . أعلا التيـاترو . وسمعت صوتها . أغنى صوتا كصوتها . كل صوت جميل هو صوتها . سمعته يغنى :

«قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار»

«لقبلات الصباح !»

الفصل الثانى

جلس محسن كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ فى المنزل الذى يقطنه ، آمنا شر البرد القارس فى الطريق ، مستعذباً نقر المطر على زجاج النافذة كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة وقد وضع على رأسه قلنسوة مصرية من «الكستور» وفتح أمامه كتاب الجمهورية للفيلسوف أفلاطون وأمسك سكينا جعل يقشر بها بصلا . وبين آن وآن يلتفت إلى طفل فى الرابعة يلعب فى أحد الأركان متقلداً سيفاً زائفاً مما يلعب به الأطفال ، ومصوباً مدفعاً صغيراً من الصفيح نحو أعداء وهميين من الألمان . وكان الطفل يثرثر ويصيح موجها الكلام تارة إلى أعدائه وتارة إلى جدته العجوز الواقفة أمام النار تهىء مرقاً من لحم البقر وهى لاهية عنه وعما يقول . وأخيراً التفتت إليه وسألته :

— ألست جوعان ياجانو ؟

— كلا . إنى أحارب « البوش » .

فقالت جدته فى تحمس :

— نعم . قاتل « البوش » يا جانو ! ولا تبق منهم أحداً على وجه الأرض !

فرفع محسن رأسه مستغربا هذه الكلمة :

— « البوش » ؟ من هم « البوش » ؟

فابتسمت العجوز وقالت :

— هم الألمان . نحن عامة الفرنسيين نطلق عليهم هذا الاسم .

وصاح جانو :

— نعم هم الألمان . جدتى ؟ لماذا هم يسمون بالبوش ؟

فتفكرت المرأة قليلا ولم يسعفها علمها المحدود :

— لست أدرى .

وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة إلى محسن مبتسمة لانهماكه فى عمله :

— «برافو» يامسيو محسن! إنك لبارع حقاً فى تقشير البصل!

فقال محسن دون أن يبدو فى نبراته تهكم أو تلميح :

— براعتك ياسيدتى فى الغناء والعزف على البيانو!

فابتسمت ولم تدرك مراده :

— يالك من فتى متملق!

وأخفى محسن فى نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم الذى هبط فيه هذا المنزل . فقد أرادت هذه المرأة أن تدخل على نفسه السرور وتملأ المنزل بهجة ومرحا ، فأرسلت فى طلب «جرمين» زوجة ابنها وأجلستها إلى البيانو وأخذت هى فى الغناء بصوت لم يعرف له محسن أصلا من الأصول ، وإذا الغناء ينتهى بصيحة ظنها محسن داخلة فى تركيب النغم . ولكنها كانت صيحة شجار دب فجأة بين الحماة وزوجة ابنها، واستفحل أمر الخلاف بينهما إلى حد أزعج الفتى . فما راعه إلا غطاء البيانو يغلق فى عنف . وزوج الابن تقوم إلى قبعتها ومعطفها فتضعها عليها وضعا فى غضب وتذهب نحو البـــاب تريد

الانصراف ، وانقلب المنزل فى لحظة شر منقلب ، وامتلأ لا بالمرح والبهجة والسلام ، ولكن بالكدر والكرب . وما من سبب ظاهر استطاع محسن أن يستخلصه لكل هذا . منذ ذلك اليوم ومحسن يحسب حسابا لعزف العجوز وغنائها . وإذا عزفت مرة أو غنت رفع عينيه إلى السماء وسأل المولى حسن الختام .

التفتت العجوز مرة أخـــرى إلى محسن وإلى البصل ثم قالت باسمة :

— لا بأس ! لك عندى ثمن عملك هذا يامسيو محسن . أتدرى ماهو الثمن ؟ سأعزف لك أغنية على البيانو ؟

فلم يملك محسن نفسه :

— أتسمين هذا ثمنا ؟ !

ثم استدرك وقال سريعا :

— أية أغنية ؟ ينبغى أن نتفق على الأغنية أولا

فقالت المرأة :

— الأغنية التى تحبها ، تلك التى قلت لى انك سمعتها فى دار الأوبرا .

فاهتز محسن فى كرسيه وأنشد على الفور مطلع أغنية « سان سانس » :

قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح !»

فنظرت إليه المرأة فى عجب :

— ما أشد حبك للموسيقى !

— إنها فى دمى

قالها محسن فى بساطة تنم عن حقيقة عميقة ، وفى لهجة تشير عن غير قصد إلى ماضيه بأكمله ! ثم تناول السكين واستأنف تقشير البصل ، وهو يصغى فى أعماق نفسه إلى أنغام تلك الأغنية ليلة أنشدتها « نينون فالان » الشهيرة فى أوبرا باريس منذ شهرين . ليلة جميلة عجيبة لاينساها محسن ، فقد رأى فيها ما لم ير من قبل وسمع ما لم يسمع ، ولقد أراد فى تلك الليلة أن يتشبه لأول مرة بالموسرين فاستأجر مقعداً فى صفهم وهو لايعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية ، ونبهته العجوز ، فحار فى شأنه إذ ليس لديه هذا

اللباس ، ورأى آخر الأمر أن يلجأ إلى الحيلة، فاشترى صدر قميص أبيض منشى ربطه على صدره رباطاً وثيقاً بخيوط (الدوبارة) ثم أتى بأكمام منشاة ربطها كذلك حول معصميه، وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله والعجوز تنظر إليه وتقول : «لو أنه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجباً : إنساناً مربطاً بالخيوط من الداخل (كطرد) البريد ! » وحان الوقت ودخل محسن الأوبرا فما تمالك أن وقف مشدوهاً : أية عظمة وأى ثراء يشعران بالدوار ! وأى أنوار !

وأدرك من فوره معنى مجسما لكلمة (الحضارة الغربية الكبرى) التى بسطت جناحيها على العالم !

نعم ، ماكل هذا البذخ والإغراق فى الترف إلى حد الكفر والفجر والاستهتار ، لكأنما جاء القوم وأغلبهم من سراة الأمريكان إلى هذا المكان يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة التطهر والخضوع

فى حضرة الفن ، أو لذة العودة إلى الإنسانية والروح على يد الموسيقى ! وصعد محسن سلم الأوبرا المشهور وهو يتصبب خجلا بين الصاعدين من أصحاب (الفراك) الثمين ، والقبعة العالية ، والقميص المنشى (الحقيق) ! والسيدات الأنيقات فى أثواب الليل البراقة ، والحلى المتألقة ، كأنهن الشموس فى عالم الماس ، وخيل إلى محسن أنه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حمله وقد مرت عليه السنون وهو يحمل الجاه والمال فى العالم قاطبة ، ولعله المكان الوحيد الذى لاشك قد وطأته أقدام جميع الملوك ، فليس ببعيد أن يغضب السلم فى هذه اللحظة ويزلزل بمحسن صائحاً : « لم يبق على آخر الزمان إلا أن يطأنى بنعله القديم مثل هذا الصعلوك القـــادم من الشرق ! » وتصور محسن أن خيوطه قد تحل لسبب من الأسباب فيسقط الصدر المنشى على الرخام وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة ! كانت ليلة أحس فيها الحرج والمذلة . وعلم أن ثمرات الفن

إنما هى أيضا حق ووقف على طبقة الأغنياء . وأن الطريق إلى الاستمتاع الروحى ينبغى ايضاً ان يفرش بالذهب ، وتمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التى تخيلها الشعراء والفلاسفة فى كل زمان : جمهورية لاتعرف الفقر ولاتعرف الغنى لأنها لاتعرف الذهب . وتعرف السلام لأنها لاتعرف الجشع . الكل فيها مثل فرد واحد . الكل فيها يعمل . والكل يأكل والكل يقرأ وينعم . والكل يلعب ويمرح . أما الذهب فانهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد . يا للسماء ! أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل ان يتحقق يوما على هذه الأرض ؟! .

وتنبه محسن قليلا وترك تأملاته ورفع رأسه فألفى السكون قد هبط على هذا المنزل الريفى الصغير ، ولم يسمع إلا صوت لغط الدجاج فى الحديقة وصياح الديكة وهرج الأوز . ثم ثرثرة جانو مخاطباً لعبه بين آن وآن . وكأنما سئم جانو اللعب آخر الأمر ، فنهض ودنا من المرأة صائحاً فى لهجته الصبيانية :

— جدتى ! الدجاجة الحمراء تبيض اليوم .

فأجابت جدته فى تقطيب :

— جانو ! إنى لا آذن لك فى الذهاب إلى الدجاج بمفردك

— سأذهب مع مسيو محسن .

— لن تذهب اليوم . إن المطر ينهمر فى الخارج والبرد شديد .

— وماذا أصنع الآن ؟

— « حارب « البوش » .

— حاربتهم .

— قص على مسيو محسن كيف أراد الألمان أن يدمروا باريس ! ألا تذكر ما قلته لك عن هذا ؟

— كلا . إنى أريد أن أعود إلى منزلنا .

— منزلكم خاو الآن وليس به أحد . أنت تعلم أن أباك وأمك لا يرجعان من المصنع قبل الغروب . دمدم الطفل وتبرم فى صوت كالبكاء . ثم مشى فى بطء إلى حيث يجلس

محسن وجعل ينظر إليه ثم مد يده الصغيرة إلى الكتاب المفتوح فوق المائدة وطفق يقلب صفحاته باحثاً عن صورة فيه . ولم يتحرك محسن . فقد كان عقله مشغولا ، ونظراته جامدة لا تتجه إلى شيء بعينه . إنما كان يتساءل فى أعماق نفسه: أليس فى كل فرنسا أمهات يلقن أطفالهن كراهية الألمان ؛ ومن يدرى لعل كل نساء ألمانيا يعلمن أطفالهن كذلك بغض الفرنسيين ؛ ولتكن الأسباب ما تكون ؛ بأى حق تستطيع أم أن تنشىء ولداً على العداوة والبغضاء ؟

وانتشرت فى المكان رائحة شواء شهى ، فرفع محسن بصره فألفى المرأة تخرج من الفرن خبزاً من لحم البقر أخذت تدهنه بالزبد وهى تقول :

ـــ سيحضرون هذا المساء فى الساعة السابعة للعشاء .

فقاطعها جانو صائحاً فى فرح :

ـــ وهل جيزيل ستحضر أيضاً يا جدتى ؟

فابتسمت المرأة والتفتت إلى محسن غامزة بعينها :

— بالطبع ستحضر جيزيل مع والديها .

فتهلل وجه الطفل ، وطفق يثرثر كالببغاء ، وابتسم محسن متذكراً أيام الطفولة الأولى !

* * *

دقت الساعة الواحدة فى مصانع « كوربفوا » القريبة ، فأسرعت المرأة إلى قاعة الأكل وجعلت تهيىء مائدة الغداء ، وسمع صرير مفتاح فى الباب الخارجى ، ثم بدا فى الدار شيخ ما كاد جانو يسمع صوت نعله وسعاله حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح : « جدى حضر ! جدى حضر ! » ودخل الرجل المطبخ ونشر مظلة فى يده بللها ماء المطر ، ومد يديه إلى النار وهو يحادث زوجه فى شؤون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف . وأصغت إليـــه المرأة حتى فرغ من حديثه فقالت له فى صوت اليائس :

— صفوة القول ، ليس لنـا أن نأمل فى عمل بأحد المصانع ؛ أليس الأمر كذلك ؟

ـــ الوقت عسير يا عزيزتى والمصانع لاتريد أن تمنح أمثالنا القوت ، لأن لديها حاجتها من العمال . من أولئك العمال المساكين تسخرهم طول اليوم من أجل لقمة كالعبيد!

ـــ وماذا نصنع نحن إذن ؟ ينبغى أن تذكر أن ولديك أندريه ومارسيل لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا بالمال . فلقد اعتزم أندريه إلحاق جانو بمدرسة داخلية ، وفى هذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين . كذلك مارسيل يتكلف الباهظ من المال منذ عام فى الانفاق على مدرسة جيزيل !

فأطرق الرجل مليا ثم قال :

ـــ صدقت . ليس لنا إذن من مورد إلا . .

والتفت يمنة ويسرة باحثاً عن محسن بعينين خابيتين تحت المنظار . وأدركت المرأة مراده والتفتت إلى مكان محسن من مائدة المطبخ فوجدته خالياً فقالت :

ـــ « عصفور الشرق » صعد إلى حجرته من غير شك كى يضع كتابه ويتهيأ للغـــداء . نعم ليس لنا من مورد

إلا ما يدفعه هذا الشاب .

صمت الرجل لحظة متفكراً ثم قال :

— أترى تطول إقامته بيننا ؟

— من يدرى ؛ لقد قال لى ذات يوم إنه سيمكث عامين أو ثلاثة . آمل أن لايسأم حياة الريف ويفر إلى باريس .

فظهر القلق على وجه الشيخ . ثم نظر مفكراً إلى النار المتأججة فى الوجاق وقال كمن يدخل على نفسه الاطمئنان :

— كلا . انه فيما يبدو لى شاب لايميل إلى اللهو كسائر الشبان

— حقيقة . انه لايحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى . لكن من يدرى ان كان يلبث فينا كل مدته ؟ ليس لنا إلا ان نأمل .

هز الرجل رأسه واطرق صامتاً ، ثم دس يده فى جيبه وأخرج لفافة تبغ . وجاء «جانو» يجرى وقفز إلى ساق جده فامتطاها كما يمتطى الحصان وطفق يحدثه بمجىء جيزيل المنتظر ...

الفصل الثالث

فرغوا من الغـــذاء ، وانصرفت المرأة إلى الأوانى والأطباق تغسلها فى المطبخ وتتأهب للعشاء ، وجلس زوجها على مقـــربة منها يدخن ويطالع جريدة « الأومانيتيه » - الانسانية - المنتشرة فى طبقة العمال وأهل الفاقة . وخلا جانو إلى لعبه ومدافعه وحربه . الضروس وأغلق محسن حجرته عليه ، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب . ولم يعد يقرأ أو يبصر شيئاً ، فقد ترك الحجرة ، وغادر الأرض ، وضل فى بحار التأملات . . .

وأقبل المساء أخيراً ، ورن جرس باب الحديقة فترك جانو لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح فى فرح : « ماما حضرت ! پاپا حضر ! » وظهرت امرأة فى مقتبل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها جانو وهى تدفعه عنها فى رفق ،

وخلفها زوجها أندريه ، وعليهما هما الاثنان مظاهر التعب والقوى المنهوكة ، ومسحت العجوز يديها فى «فوطة» المطبخ التى ترتديها ، وأقبلت على زوج ابنها تعانقها وتتأمل وجهها وتقول فى حسرة متصنعة :

— إنك متعبة منهوكة القوى ياجرمين !

فأجابت الزوجة وهى تنظر إلى زوجها الشاب :

— إننا لم نخرج من المصنع إلا الساعة .

واتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه وتصيح فى حرارة حقيقية :

— وأنت أيضاً يا أندريه ! ما كل هذا الشحوب

— إننا يا أماه نعمل ثمانى ساعات فى النهار !

قالها أندريه وهو ينظر الى أبيه . وكان أبوه قد طرح الصحيفة من يده واتجه الى جرمين وجانو يباسطهما ، فلما سمع قول أندريه صاح فى حدة :

— يالها من وحشية ! إن هذا لم يعد يسمى عملا . إنما هو

الاسترقاق . الرق لم يذهب من الوجود . لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين . هاهى ذى جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين !

ورفع جانو بصره إلى جده ولم يدرك سبباً لحدته وحانت من أندريه التفـــاتة إلى الصحيفة الملقاة على الأرض فابتسم وقال :

ـــ أهذا ماقرأته اليوم فى « الأومانيتيه » يا أبتاه ؟

فأجاب الرجل فى جد وحدة :

ـــ نعم ، أوليس هذا هو الحق .

ـــ من غير شك ، هـــذا هو الحق ، لكن ماذا نصنع نحن الفقراء ؟

ـــ ينبغى أن تنقص ساعات العمـــل على الأقل ، حتى تستردوا بعض حريتكم وبعض وقتكم وحتى تنقذوا مابقى لكم من صحتكم ، وحتى نجد لنا نحن العاطلين عملا وكسباً نسد به الرمق .

— إنك تجهد نفسك فى الكلام يا أبتاه . لقد قلت الحقيقة : نحن عبيد القرن العشرين . ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح ؟

وأراد الشيخ أن يجيب ولكن جانو تململ ونظر إلى والديه وإلى جدته وصاح :

— لماذا أبطأت جيزيل ؟

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحاً فى السؤال فضربت الأم على يده الصغيرة فى لطف ، وخلصت ثيابها منه ، وأرادت جدته أن تقصيه فقالت له :

— إذهب وجىء بمسيو محسن ، فقد أزف ميعاد العشاء

وتنبه أندريه فسأل على الفور :

— أين عصفور الشرق ؟ لقد فاتنى أن اسأل عنه ساعة دخولى ؟

— فى حجرته .

فاتجه اندريه نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

— لست ارى نوراً فى حجرته .

فأجابت الأم العجوز وهى تقطع رغيفاً طويلا من الخبز:

— إنه فى حجرته ، جالس إلى مكتبه ، وطالما يفاجئه المساء وهو امام كتابه بلاحراك ، وكثيراً ما ادخل حجرته فأجد الظلام مخيما عليه وهو جالس جامد كالتمثال فأدير له مفتاح الكهرباء !

— إنه غريب الأطوار ! إنى اعرفه حق المعرفة !

وعندئذ دق جرس الباب الحديدى ، فمرق جانو من بين الجميع إلى الباب وهو يصيح كالعصفور الصغير :

— جيزيل

* * *

اجتمع الكل حول المائدة وكانوا قد انتهوا من العشاء منذ قليل ، ولبثوا فى مقاعدهم يتحدثون عن الاشتراكية ، وقد فشا امرها فى باريس ، وأمست بدعة من البدع يتبعها الناس مقلدين . وان الحياة امست عسيرة وان سعر الفرنك هوى الى الحضيض ، وان فرنسا الآن فريسة اصحاب المال

الأمريكيين ، وأن هؤلاء الأمريكان قد بلغ من عتوهم واعتدادهم بثرائهم ان الواحد منهم لا يوقد سيكاره إلا بورقة مالية مشتعلة تحت أنظار الشعب الفرنسى الفقير! هنالك صاح زوجها الشيخ فى غيظ :

— يالهم من أنذال !

ثم استطردت العجوز فجأة ، وكأنها استكشفت شيئاً :

— لاريب أنهم هم السبب فى غلاء أســـعار الخضر واللحم والفاكهة ؟

وألقت نظرة استنهام على الحاضرين فاذا هى ترى جانو وابنة عمه جيزيل قد جلسا متلاصقين يأكلان « الجاتو » ولا يكفان عن الكلام .

ونفد نصيب جانو فجعل ينظر إلى جيزيل التى تكبره بعامين وهى تأكل فى تؤدة وكياسة ، وفطنت الطفلة إلى فمه العاطل وإلى نظراته الطامعة فما ترددت، وتقدمت إلى صديقها بكل مابقى لها . ولم يأب عليها جانو، وقبل منها هديتها وطفق

يلتهم ما أعطته وهو ينظر إليها بعينين باسمتين كلهما اعتراف بالجميل، لكنه لم يقل شيئاً. هنالك تجهمت له جدته وصاحت به:

ـ جانو! ألا تقول لها شيئاً؟

فالتفت الطفل إلى جدته فى سذاجة:

ـ أقول ماذا؟

ـ تقول ماذا؟ تقول ما يقول الناس عندما يتقبلون شيئاً من الغير.

ـ ماذا يقول الناس؟

ـ يقولون: «شكراً»، ولقد علمتك ذلك ألف مرة.

ثم التفتت إلى والدى الطفل فى قنوط:

ـ لم يبق لى جلد على تهذيب هذا الغلام. وإنى أصارحكما القول. هذا ليس من عملى، إنما هو من عمل الأبوين. ومادمتما تتركان لى ابنكما طول النهار وتنصرفان إلى المصنع؛ فلا أمل فى أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم.

فأجاب أندريه فى غير اكتراث:

— وهل تظنين يا أماه أن هذا من عملنا نحن ؟ هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ؛ أما نحن فلدينا عمل آخر كما تعلمين .

— نعم . المصنع !

فقال الشيخ فى تهكم :

— بالطبع . المصنع !!

فهزت جرمين كتفيها . فقالت العجوز فى حدة :

— لا تهزى كتفيك يا جرمين ! إياك أن تنسى لحظة أهمية تأثير البيت . فى زماننا كان البيت هو كل شىء . آه . لقد ذهب كل شىء طيب بذهاب زماننا !

فقال أندريه وأخوه مارسيل فى وقت واحد :

— أين هو البيت اليوم يا أماه ؟

فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ثم أجابت !

— صدقتما لم يعد هنالك بيت وا اسفاه ، ولم تعد هنالك أسرة . الرجل والمرأة فى المصنع طول النهار ! ياله من زمن عجيب !

فقال الشيخ فى قوة واقتناع :

ـــ قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد !

وانتبه محسن لهذه العبارة ، فلمعت عيناه ببريق غريب . ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين فى الصعود إلى حجرته ، فأذنوا له باسمين ، فصعد وجلس إلى مكتبه فى الظلام ، وهو يهمس :

ـــ نعم . لن يذهب الرق من الوجود . لكل عصر رقه وعبيده !

الفصل الرابع

لم يمكث محسن طويلا غارقاً فى تأملاته، فقد ضرب عليه الباب، فانتبه، وإذا صـــديقه أندريه وزوجته جرمين يصيحان به:

— عصفور الشرق وحيد فى القفص!

فقال محسن كالمخاطب نفسه:

— إنى دائما فى قفص.

فقال أندريه فى ابتسامة خبث:

— فى قفص الحب سجين أيها المسكين!

— نعم سجين.

فقالت جرمين باسمة:

— أتعترف بهذه السهولة؟

— وما فائدة الانكار؟

ـــ ولماذا لاتنطلق حراً مغرداً فى فضاء الحب ؟ ؟

فأسرع أندريه قائلا :

ـــ إنك تطلبين المستحيل . إنه سيظل دائماً هكذا ، إنه حتى الآن لم ينجح حتى فى الوصول إلى معرفة اسمها

فقالت جرمين فى ضحكة خفيفة :

ـــ لم يعرف بعد اسمها ! حقاً إنه لمحب خائب !

فاتخذ وجه محسن لون الجد الصارم . وقال فى هدوء وموافقة واقتناع :

ـــ أما إنى محب خائب ، فهذا صحيح ، ولا محل للجدل فيه ، وقد أعيتنى هذه الخيبة فى كل زمان ومكان !

فقال أندريه سائلا :

ـــ ألم ترها اليوم ؟

ـــ لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف إلى غير مطالعاتى . إن الكتب تستطيع أن تشغل رأسى حقيقة لكن هل الرأس هو كل شىء فى حياة إنسان ؟ آه ! .. إن أجمل لحظاتى ساعة

أقف أمامها أنتظر ، وانا أعلم انها لن تلقى إلى بكلمة تسر خاطرى . مرة واحدة نبذت إلى عفواً بنظرة وقالت لى . « أما تزال واقفاً هاهنا ؟ اى مخلوق انت ؟ » .

— وما قصدها من هذا ؟

— لست أدرى ؟ فسر هذه الجملة كما تشاء . أما أنا فقد فسرتها طبعاً لمصلحتى . إنى أحب هذه العبارات المبهمة التى أتخيل معناها كما أشاء

— انك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك .

قالها أندريه وهو ينظر الى جرمين . فأمنت على قوله برأسها وأضافت :

— من غير شك . لاسبب عندى لفشل محسن غير انه خيالى اكثر مما ينبغى . والمرأة لاتقتنص بالخيال ، بل بالحقيقة .

فلم يعترض محسن وقال فى إذعان :

— واين هذه الحقيقة ؟ امنحانى هذه الحقيقة التى اكسب بها عطف المرأة ؟

فقالت جرمين :

— اتريد ان تعلم اين تجد هذه الحقيقة ؟

— نعم اخبرينى أين هى ، وأنا لاأنسى لك أبداً هذا الجميل .

— إنها تشترى بالثمن ؟

— كم الثمن ؟ كل حياتى فيما اعتقد !

— بل عشرون فرنكا فقط .

— أتمزحين ؟

— بل اقول جدا . عشرون فرنكا فقط تشترى بها من حانوت شارع « هوسمان » زجاجة عطر « هوبيجان » صغيرة وتقدمها إلى صاحبتك فى الصبـــاح هذه هى كل الحقيقة . افهمت ؟

فحملق محسن فى الفضاء ، كأنما قد كشف عنه حجاب ، ثم التفت الى جرمين وقال .

— أحقا ماتقولين ؟

فابتسمت جرمين وقالت فى صوت المتعجب :

— يدهشنى أن فتى ذكيا مثلك يجهل هذا !

— قارورة « هوبيجان » فقط ! ثمنها عشرون فرنكا ! إنك تبالغين ياسيدتى ! إنها الجديرة ان أضع تحت شباكها قلبى كله !

— شباكها !

— لن أقدم اليها شيئاً زهيداً من هذه الأشياء !

— اين صاحبتك يامحسن ؟

فأجاب اندريه فى الحال عن صديقه باسما :

— قلت لك ياجرمين إنه لايعرف من هى ، ولا يدرى عنها شيئاً .

فقال محسن دون أن يخرج عن هدوئه :

— هذا صحيح .

وازداد عجب جرمين فقالت تسأل الفتى :

— ياللغرابة ! وأين تراها إذن ؟ !

فأجاب محسن :

— أراها فى شباكها ، تشرف على النـــاس بعينين من

فيروز ، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من كل جنس ومن كل طبقة . فيهم الفقير مثلى ، وفيهم الموسر مثل ملك من الملوك . نعم . يمر بين يديها كل يوم هذا الموكب ، وهى تبسم من شباكها بين آن وآن ، دون أن يعرف أحد سر قلبها .

فنظرت جرمين الى محسن مليا ثم قالت :

ـــ أهذه المرأة فى باريس ؟ أم فى كتاب ألف ليلة وليلة!

وقال أندريه ضاحكا :

وهذا الشباك أين هو ؟ فى أى قصر سحرى ؟

وأردفت جرمين ضاحكة :

ـــ وهل توجد حقا فى باريس تلك المرأة التى يمر بين يديها الناس وهى فى الشباك ؟!

فأجاب محسن فى هدوء :

ـــ فى شباك التذاكر .

فصاحت جرمين وقد فهمت مراده :

ـــ آه .. هى عاملة فى شباك تذاكر ..

— تياترو الأوديون !

قالها محسن كالحـــالم . وضحكت جرمين ، وضحك أندريه ثم قال :

— أتسمع نصيحتى يامحسن ! اذهب غداً وقدم إليها باقة من الزهر ، ثم ادعها إلى العشاء فى مطعم من المطاعم !

فتفكر محسن قليلا ثم قال :

— وإذا لم تقبل منى باقة الزهر ؟!

فقالت جرمين من فورها :

— لايوجد امرأة فى باريس ترفض باقة من الزهر ! .

الفصل الخامس

— مدموازيل ! ألم يأت بعد ؟

— من ؟

— ذلك الفتى الذى يضع المعطف الأسود فوق منكبيه.

— لست أدرى يا كلوتيلد . لا أظن أنى رأيته اليوم ...

— إنى أراه دائما جالساً فى القهوة التى أمامنا يطيل النظر إلى هذا الباب .

— لعله مجنون .

وعندئذ أقبل رجل فى سن الشباب جميل الهيئة ، دخل تواً على عاملة شباك التذاكر من ذلك الباب الذى كتب عليه بخط كبير : « الدخول ممنوع » فما إن رأته كلوتيلد العجوز حتى تناولت مكنستها وهرولت إلى عملها وهى تهمس :

— « الرئيس » .

— من هو المجنون ياسوزى ؟

قالها ذلك الرجل بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة لايدرك معناها غيرها. فهزت كتفيها ولم تجب . فألح الرجل فى شدة وغضب :

— قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينين متسعتين فى لون الفيروز ، تزينهما أهداب طويلة شقراء . ثم قالت فى صوت لا يدرك معناه إلا هو :

— لست أنت المقصود على أى حال .

— من إذن ؟

— فتى آخر كنا نتحدث عنه

— فتى ! !

— لست أعرف بعد من يكون ، اعتاد أن يأتى كل يوم إلى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفض الناس ويخلو المكان ، فيتقدم إلى قائلا : « بونجور مدموازيل ! » فأرد عليه التحية ،

فيقف يطيل إلى النظر صامتاً، ثم يتحرك قائلا: « أورفوار مدموازيل ! »، ويمضى لشأنه . !

— أحد المعجبين من غير شك !

قالها الرئيس الشاب فى نبرة غريبة . فأجابته سوزى على الفور :

— بل مجنون . هذا كل اعتقادى .

— حسبتك تعنينى أنا .

— أنت ؟! لا ياعزيزى هنرى . أنت العقل بعينه . أنت أعقل مما ينبغى . آه ياسيدى . لقد تبين لى أنك أعقل مما كنت أتصور . هنيئاً لك !

قالتها سوزى فى إطراق وفى شىء من الغضب المكتوم . وأطرق هنرى أيضاً ، وجعلت يده تعبث بدفتر التذاكر على حافة الشباك . وطال بينهما صمت قطعته كلوتيلد حارسة المقاصير، صائحة من جوف مقصورة :

— مسيو هنرى . ! انعد مكان الأوركستر؟

فانتهز هنرى الفرصة ليخرج من موقفه . وأسرع إلى قاعة المسرح وتوسط صفوف المقاعد وصاح :

— أيتها الحمقاء كلوتيلد ! الليلة رواية « الأرليزية » ! أتريدين « الأرليزية » بغير موسيقى ! اعدى محل الأوركستر حالا ايتها الشمطاء !

وعاد السكون إلى المكان . وأرادت سوزى أن تعود إلى تلاوة قصة « لاجارسون » التى كانت تشغل وقتها الخالى بقراءتها كلما خفت وطأة العمل . لكن شيئا فى رأسها حال بينها وبين الكتاب ، فجعلت تنظر فى فضاء المكان دون أن تثبت بصرها فى شىء بعينه . وحانت منها نظرة عارضة إلى تمثال فولتير الرخامى أمامها فى الردهة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة ، فحركت أهدابها قليلا وكأنما راعها شىء منه ، لكنها تمالكت وهزت كتفها وأخرجت من حقيبة اليد بجانبها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة وجعلت تطلى وجهها الجميل حتى ظهرت كلوتيلد تقول فى غضب :

— أسمعت شتائمه !

فقالت سوزى فى غير اكتراث :

— من ؟

فأجابت العجوز وقد استندت إلى مكنستها :

— « الرئيس » ! اما رأيت سوء خلقه اليوم ؛ إنه لاريب قد حدث بينكما شىء يا مدموازيل سوزى ، إن خلقه لايسوء إلا يوم يكون الأمر بينكما . .

فتنهدت سوزى تنهداً خفيفاً ، وابتسمت ابتسامة فاترة ، ولم تجب .

* * *

لبث محسن فى مجلسه من المقهى الذى أمام الأوديون يحتسى قدحاً من القهوة ممزوجة باللبن ويتأمل تلك الأعمدة العظيمة التى يقوم عليها بناء المسرح الفخم . ولاتبرح عيناه الباب كأنما هو باب فردوس لايدرى اهو من داخليه أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين . ولم يقطع عليه تأمله

غير حركة فتى وفتاة من أهل باريس يتعانقان خلفه ويقبل احدهما الآخر علانية كما اعتاد الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب . فازور محسن عنهما برأسه غير راض أن تعرض العواطف هذا العرض فى الشوارع والطرقات فتبتذل وهى التى ينبغى لها أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى الأصداف . وبينما محسن فى تأمله إذا كف قد وضعت على كاهله فالتفت فرأى أندريه يبسم له ويقول :

— ماذا تصنع هنا امام الأوديون أيها الفتى الشارد !؟

— أنت ؟ دائما أنت ورائى هكذا !

— ماذا تفعل هنا ؟ أجب وأسرع !

فتردد محسن قليلا ، ثم أشار إلى المسرح قائلا :

— إنى اتأمل هيكل الفن .

فغمز اندريه باحدى عينيه وقال :

— بل قل هيكل الحب .

— كلاهما واحد . احدهما حال فى الآخر ، كالنور فى المصباح .

ـ اهى هنا ؟

ـ هى هنا ، ورواية « الأرليزية » هنا . آه ! . . .

ما اجملها وما اجمل الرواية ، نثراً وموسيق ؟ هنا فى هذا الهيكل قد امتزجت صورتها فى نفسى بصدى أنغام « الأنترمتزو » . ورقصة « الفراندول » !

ـ ألم تقدم إليها بعد باقة الزهر أو عطر الهوبيجان !

ـ لازهر ولا عطر . إنها أعظم قدراً عندى واجل خطراً من أن أقدم لها شيئاً أو أن أوجه إليها كلاماً !

فبدا العجب فى وجه الفرنسى . وخيل إليه أنه يسمع الغازاً وطلاسم لاقبل له بفهمها . فهز كتفيه مريحاً نفسه :

ـ تلك ولاشك فلسفة شرقية !

ـ وانت كيف عثرت على ؟ وما حضورك هنا الساعة ، والعمل فى المصنع قائم على قدم وساق ؟ !

ـ لا مصنع اليوم ولا قدم ولا ساق . ألم تقرأ صحف الظهر ؟ قد أضرب العمال فى مصانع « كوربفوا » أضربنا

جميعاً إلى أن يعدوا بالنظر فى مطالبنا . وأما العثور عليك ومعرفة مقرك الآن فليس من المعضلات .

وابتسم أندريه فى خبث ، ثم مد يده إلى صديقه قائلا :

— والآن ، هلم بنا . !

فنظر إليه الفتى دهشاً قلقاً :

— أين ؟

— نحضر اجتماع العمال .

— وما شأنى أنا والعمال ؟

— نزهة قصيرة .

— نزهة ! آه يا سيدى ! بعض عطفك وكرمك! أخبرنى متى ترحمنى من هذا الذى تسميه : « نزهة قصيرة ! » .

— يسرنى دائماً أن تذهب معى . .

— وأنا يسرنى دائماً أن تذهب أنت وحدك . دعنى الآن فيما أنا فيه . إنى كما تعلم لست من العمال العاطلين . إنك لترى أن لدى عملا . .

— فى أى مصنع ؟

— هنا . .

وأشار الفتى بيده إلى المسرح . فضحك أندريه وقال :

— أتسمى هذا عملا ؟! آه . . أيها العاشق الشرقى الذى ينفق أيامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !

سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى فانتفض قائماً ، وقد لمعت فى رأسه كالبرق صور من الماضى . فرأى قهوة : «الحاج شحاته» فى حى السيدة زينب بالقاهرة وذكر جلوس عمه اليوزباشى «سليم» الساعات الطوال ببابها ، شاخصاً إلى دار محبوبته «سنية» ، آملا أن يلمح لون ثوبها الحريرى الأخضر خلف «المشربية» . وأدرك محسن لفوره أنه يصنع الآن فى شارع «الأوديون» عين الذى كان يصنع سليم فى شارع «سلامة» منذ سنوات . أهى المصادفة ؟ أم ان هذا شىء فى دمه ؟ لايدرى ، غير انه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها ، وانه يحب هذا القرب لذاته .

وعاد محسن فجلس . واتسعت حدقتا الفرنسى دهشة وصاح :

— ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟

— إنك ترى بعينيك أنى لا أستطيع .

فأشار أندريه إلى « التياترو » بأصبعه :

— ولماذا لاتذهب إليها فتفاتحها بما فى نفسك ؟

— أأنت مجنون ؟!

— أنا المجنون ؟؟!

لفظها الفرنسى وهو ينظر إلى محسن ولا يجد كلمات يصفه بها . ومضى الفتى يقول :

— ياعزيزى أندريه . مازال فى رأسى قليل من الإدراك يكفى لإفهامى على الأقل أن مثل هذا الجمال فى شباك مفتوح للجمهور لا يمكن أن يبقى حتى الآن فى انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذى هو أنا !

— تريد أن تقول إن لها عشاقاً ؟

ـــ ألف عاشق وعاشق . وقد لايحصون عدا ، كل من حولها يحبها ، ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ، ونجوم السماء !.

ـــ كفى خيالا وشعراً . تكلم فى الواقع . هل أخبروك أنها تحب أحداً بعينه ؟

ـــ إنها ياسيدى محبة محبوبة .

ـــ كيف علمت ؟

ـــ بالفراسة .

فنضب معين الصبر من صدر الفرنسى وصاح :

ـــ الفراسة أيها اللكع ؟ وهذا بابها ، وهذه هى جالسة ، أكاد أراها من هنا ! أقسم إنى لم أر مثل هذا فى حياتى . .

فلم يحفل محسن لصياحه ، ولم يبد حراكا . غير أنه أرسل نظرة إلى باب المسرح ، وخطر له طيف «سليم» مرة أخرى . وهو اليوم زوج لإحدى قريباته وأب لولدين صغيرين . وقد شـــغل وظيفة عسكرية فى مصلحة خفر السواحل . وأصبح ذا جسم ممتلىء و« كرش محترم » ، أما شارباه القائمان

فقد هوت بهما الأيام ، واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف فى حياة الملايين من هذا النمل البشرى ، وقد ذهبت ساعات جلوسه فى قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر فى حياته، طغى الزمن ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت صورة (سنية) من رأس (سليم) ومع ذلك ، فهو إن بحث اليوم فى أغوار قلبه عن خير ساعات حياته لما وجد أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات التى كانت تطير هباء فى جلوس طويل بين اليأس والرجاء ، شاخص الأبصار إلى نافذة سنية . ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شىء جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث . هو كل ما ظفر به قلب « سليم » ، وكل قلب على هذه الأرض ، من إحساسات عليا ، ماذا يهم مايتم من لقاء بعد ذلك بين حبيبين ؟ إن خفقة القلب التى كانت تهز كل كيان (سليم) كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ، وذلك الصبر الطويل على القهوة فى انتظار هذا الخيال . هو كل جمال الحب . .

واسترسل محسن فى تصوراته وتذكاراته، فنسى أندريه، وأدرك القنوط الفرنسى فرفع يده فى حركة عصبية :

— لا . حقيقة لا . إنى لا أستطيع أن أنفق عمرى جالسا هكذا . إن الزمن شيء لاتعرفونه أنتم معشر الشرقيين ، ولا يعنيكم أمره !

— لقد تحررنا منه .

فحملق أندريه فى محسن مليا ثم صاح :

— آه ، أيها الشرقيون ! .. أأنتم بلهاء أم أنتم حكماء ؟ هذا ما يحير . . .

— تلك عبقريتنا !

الفصل السادس

يروى الجاحظ أن رجلا دميما ، تزوج إعرابية حسناء هامت به فسئل فى ذلك ، فقال : «قرب الوساد وطول السواد»!

ذكر محسن تلك الكلمة وهو جالس يرمق أعمدة « الأوديون » من مكانه بالقهوة ذات صباح . فاهتز فى كرسيه ولمعت عيناه فرحاً . فقد وجد السبيل الذى يسلكه مثله . إنه يعرف نفسه ؛ فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب ولا بفضة ، وغير موشى بألوان ولا برسوم . ولا تبهر هيئته ولا تغر . ولكن طول الجوار قد يحمل الصادف عنه على النظر إليه واستطلاع مافيه . وهو إن فعل فلا شك واجد فى قلبه بعض تلك اللآلىء التى يبحث عنها الناس . ولكن كيف يدنو منها دنوا متصلا وهو غير قدير على أن يذهب إليها الآن ليقرئها السلام ، وكيف يجد « قرب الوساد وطول السواد »

مع هذه ؟ وهو لا يستطيع أن يظفر من وقتها بخمس دقائق؟ وتذكر عند ذاك شارع سلامة بالقاهرة ، حيث كان يقطن منذ أعوام إلى جوار « سنية » . حقا لو لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه إلى جانب مسكنها لما كان لتلك الفتاة مكان فى حياته يوماً ما . نعم . لاشىء اليوم يستطيع أن يخرجه من هذا اليأس غير قرب السكن والجوار « طول سواد الليل وبياض النهار » ! ولكنه لا يعرف أين تسكن ؟ وكيف تسكن ؟ أبمفردها ؟ هذا هو الحلم الذهبى . لا . هذا مستحيل . إن القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم . إنها لاشك تقطن مع أهلها ؟ ومع ذلك ماذا يعنيه من هذا الأمر . إنه راض بالقليل ، يكفيه منها مجرد الشعور فى كل حين أنها هى جارته . بقى عليه أن يعرف مقر سكنها وهذا ميسور . ما عليه إلا أن يتبع خطاها وهى خارجة من المسرح فى المساء : هنا وثب محسن وكأن الأزمة قد انفرجت . فهو منذ اليوم لن يتخذ القهوة مطاراً لخيالاته المحلقة بلا جدوى فوق هذا المسرح .

ولكنه سينشط ويسير فى طريق الأمل على هدى من أمره.
وفرك يديه ليدفئهما من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ المطر الذى أصابهما ، وقام يمشى فى الطرقات يقتل النهار فى انتظار المساء ، متصفحا تارة وجوه حوانيت الكتب وتارة (إعلانات) المسارح الغنائية على الحيطان وحفلات (الموسيقى السانفونية) ؛ إنه حتى اليوم لم يكن قد عرف موسيقى (بيتهوفن) معرفة كاملة . فان الحفلات السانفونية القليلة التى حضرها لم تعقد بعد أسباب الألفة بينه وبين ذلك القلب الكبير ، ولم يقنط الفتى ! فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول قادم ، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من طرق أبوابهم . إنما ينبغى الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب الهياكل وأبواب القصور ، والتوسل بالرغبة الصادقة فى الوصول ؛ فان الصبر فى الفن وفى الحب هو مفتاح الطريق .
ووقع نظر محسن على برنامج حفلة موسيقية تعزف فيها السمفونية الخامسة لبيتهوفن تبتدىء بعد الظهر وتنتهى

فى المساء الباكر ، فماترددوأزمع الذهاب . وجاء الظهر فتغدى فى مطعم صغير ثم أسرع إلى مسرح (شاتليه) ليصغى إلى ذلك الرجل الذى أصغت إليه أجيال من البشر . هنالك وجد الفتى المسرح يعج بالناس . فاتخذ له مجلساً متواضعاً فى أعلا المكان . وجعل يشاهد من عل ذلك البحر العجاج من نساء ورجال فى القاعة والشرفات . ولم يمض قليل حتى ظهر الموسيقى (جابر بيل بيرنيه) رئيس الفرقة بعصاه الصغيرة ولحيته البيضاء القصيرة . فسكن الضجيج فجأة وارتفعت الأيدى بالتصفيق . ثم خيم على المكان سكون قدسى كسكون المعابد ، وشعر محسن بالخشوع الذى خامره فى الكنيسة ذلك اليوم ، وتحركت يد الأستاذ بالعصا ، فاذا (بيتهوفن) يتكلم بلغته السماوية قوية أول الأمر فى ذلك الـ (أليجرو) الجليل ، حلوة بعد ذلك كأنها أصوات الملائكة الصافية فى ذلك الـ (أندانت) الهادىء ، ثم فياضه بالسرور الداخلى من ذلك الـ (سكرتزو) المشرق إلى أن تنتهى منه إلى ذلك الفرح

المتفجر من أضواء أنغام الـ (برستو) الأخير .

نعم . إن هو إلا وحى السماء يتكلم بمختلف المشاعر العظيمة التى رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة ! لقد بدأ محسن يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التى قرأها فى نيتشه : (كل عواطف البشرية السامية فى السنفونية الخامسة) .

وترك محسن المسرح وهو شارد اللب ، شأنه شأن بقية الناس . مازالت نفسه هائمة فى ذلك الجو العلوى . وخرج إلى الطريق فاستقبله الهواء البارد ضارباً وجهه فعادت فى الحال إليه نفسه ، ونظر حوله فاذا الظلام ينبئه أن الموعد قد قرب . فأسرع فى المشى إلى « الأوديون » ووقف ببابه مستخفياً وراء عامود يرقب خروج الحسناء .

دقت الساعة العاشرة . فأقفل شباك التذاكر . وخرجت الفاتنة تتهادى كالغزال الذى وصفه إسحق الموصلى بقوله :

شادن لم ير العراق وفيه
مع ظرف العراق دل الحجاز

وعرف محسن هذا الشادن من مشيته ذات الدل قبل أن يرى فى الظلام وجهه . فاختلج قلبه ولم يتحرك وابتعدت صاحبته ؛ وهمست إليه نفسه أن انطلق خشية أن تختفى عن نظرك . فأسرع خلفها وهو كالخائف . إلى أن بلغت سلم « المترو » الأرضى فنزلت إلى المحطة بعد أن أبرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها . وما إن وصل محسن واتجه إلى شباك التذاكر وابتاع تذكرة ودفع قطعة فضية واسترجع بقيتها حتى كان القطار قد أقبل ومضى بالفتاة . وهو ينظر فاغراً فاه خائب الأمل . وثاب إلى رشده بعد قليل . فقال لنفسه : « لم أحسب حساب دفتر التذاكر الذى معها ! بالطبع ينبغى أن يكون معى مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطع عين الطريق آتية غادية مرتين فى اليوم ! لابأس . لافائدة من الحزن والندم . غداً أعيد الكرة بعد أن أعد عدتى ! » وجاء الغد فحصل على دفتر تذاكر فى الدرجة الثانية وانتظرها ثم اقتفى أثرها حتى المحطة . وجاء قطار المترو فاندفع هو إلى عربة

فى الدرجة الثانية ونظر خلفه فاذا هى تصعد إلى عربة فى الدرجة الأولى. وسار القطار ولا اتصال بين العربات. والمحطات كثير ولم يعرف فى أيتها نزلت الفتاة! وضاع أثرها أيضاً منه فى هذه المرة. فسخط وثار على نفسه صائحاً: إنها الخيبة والبله بعينه! ألا أستطيع أن أقتفى أثر إنسان عشرة أمتار! ثم هدأ وابتسم وقال كالحالم: « ما كنت أعتقد ان مهنة البوليس السرى بهذه الصعوبة »!

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى فى اليوم الثالث، فقد احتاط للأمر من كل جانب. ولم يغفل عن الفتاة طرفة عين. وصعد معها فى عربة واحدة وجعل يراقبها عن كثب دون ان يظهر لعينيها حتى بلغ المترو محطة « پورت دى ليلاس » فنزلت. فأسرع ونزل خلفها.. وسارت فى طريق طويل. تنبت على جانبيه اشجار الزيزفون والكستناء فتابعها متوارياً بين لحظة واخرى خلف جذوع الأشجار؛ إلى ان بلغت فندقاً يدعى « فندق زهرة الأكاسيا » فدخلت..

لم يفعل محسن شيئاً بعد ذلك. غير انه عاد أدراجه

وهو لا يمشى على الأرض ... ولكنه يطير راقص القلب . فقد عرف منزلها .

وفى صباح الغد نهض محسن مبكراً وفتح حقائبه وحشر فيها ثيابه وكتبه حشراً ، وودع المرأة العجوز الدهشة على عجل ... وأعطاها رسالة سريعة كى تسلمها إلى أندريه وزوجته ، ووضع أمتعته فى « تاكسى » ، وهو يقول للمرأة العجوز : قبلى عنى الصغير « جانو » . غداً يخبرك أندريه عن سر هذا كله ... إلى اللقاء ...! والتفت إلى سائق السيارة وهمس : (إلى بورت دى ليلاس فندق زهرة الأكاسيا) !

وما كادت تختفى السيارة حتى ثابت العجوز إلى رشدها وقالت متنهدة :

— هذا الذى كنا نحسبه عاقلا ؟

* * *

كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب محسن يسابق السيارة ، وهو كأنه قد ظفر بايوان كسرى ! ما كل هذا الفرح ؟ ألأنه

رآها تدخل فندقاً ! وإذا ظهر بعد هذا كله أنها لا تقطن هذا النزل وأنها ذهبت زائرة . أما كان ينبغى له أن يتريث ويستوثق من الأمر قبل هذا الركض الجنونى بأمتعته !

هنا أصفر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون قد فقد أثرها أيضاً هذه المرة . غير أنه لم ير إلا أن يمعن فى السير وأن ينزل هذا الفندق فقد فات أوان الرجوع ، ووقفت السيارة بباب الفندق وانزلت الأمتعة وقادته المديرة إلى الحجرة رقم ٤٨ فى الطابق الخامس .

وكان كل مايطمع فيه محسن وقتئذ ، أن يعرف هل تقطن هنا حقاً صاحبته ؟ وفى أى طابق وأى حجرة ؟ ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف اسمها ؟ ودخل الفتى حجرته ، فألفاها صغيرة نظيفة ، ذات نافذة تطل على فضاء (فهذا الحى هو طرف قصى من أطراف باريس وباب من أبوابها) ، كما الفى مطبخاً صغيراً ملحقاً بالحجرة ، معداً بأحدث معدات تهيئة الطعام ، من موقد وفرن صغير يشعل بغاز يأتى

فى أنابيب ، إلى أدوات لشواء اللحم ، وخزائن لوضع الأوانى وحوض ماء . فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ، وكل حجرة بملحقها معدة كأنها مسكن مستقل .

ولبث محسن فى حجرته ذلك اليوم يشتغل باخراج أمتعته وكتبه وتنظيم أمره فى تلك الحجرة . وهو يقول فرحاً : « لقد أصبح لى مطبخ ، إنى سأحتاج إليه من غير شك أيام العسر والافلاس . فان أكلة فى المطعم تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة أيام ! »

* * *

نام محسن ليلته الأولى فى ذلك المقر الجديد نوماً ثقيلا . فلقد قرأ البارحة كثيراً وتأمل كثيراً . وهو إذ يفعل ذلك لا يستيقظ دائما قبل التاسعة ، ولكنه فى هذا الصباح نهض قبل السادسة وثباً من فراشه على صوت فاتن يغنى كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة فى رواية « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى . .
لا يعرف أبداً قانوناً . . . »

فأسرع إلى النافذة وبحث عن الصوت فاذا فتاته فى (روب دى شامبر) نسائى من الحرير الأبيض تنظم (أزهار البنفسج) فى أصص على حافة النافذة التى تحت نافذته !هى؟ هنا ؟ تعيش فى حجرة أسفل حجرته ! ؟ وثب قلب محسن ونبض نبضات ، خيل إليه انها سمعتها ، ولكنها مضت فى غنائها :

« إذا لم تحبنى فأنا أحبك
وإذا أحببتك فالويل لك ! . . . »

الفصل السابع

أسرع محسن وارتدى ثيابه ووقف بباب الفندق ينتظر خروجها . فهو قد أدرك أنها لابد خارجة بعد قليل . وهو يعلم أن شباك تذاكر « الأوديون » يفتح فى الساعة الحادية عشرة . ولم يخب ظنه . فقد سمع صوتها بعد لحظة وهى تنزل السلم سائلة صاحبة النزل عن بريد الصباح . فاستعد وضبط أعصابه . وما كادت تدنو منه حتى تقدم إليها ورفع قبعته السوداء فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة وسددت إليه عينيها الفاروزيتين . فارتج عليه ولم يعرف كيف يبدأ الكلام . وخيل إلى الفتاة أنها رأت هذا المعطف وهذه القبعة السوداء من قبل . وبدا على وجهها أنها تذكرته . فما رأى محسن منها ذلك حتى قال للفور :

ـــ نعم . أنا هو . . .

فابتسمت قليلا . غير أنها قالت :

— هو من ؟

— فخجل الفتى وارتبك ، ورأت الفتاة خشونة ردها عليه فاستدركت :

— إن لم أخطىء الظن فأنت يا سيدى « زبونى » !!

— نعم . أنا هو « زبونك » الدائم . ولى الشرف أن أكون كذلك . . .

— وما جاء بك إلى هذا الحى الذى لا يعرفه الأجانب ؟ معذرة من فضولى ! ! !

— فضولك ياسيدتى هو كلّ ما أرجو وما أحب . جاء بى إلى هذا الحى . . . الفضول . . .

فابتسمت وقالت :

— أيضاً ! !

— بل شىء أكبر جداً من هذا . . .

واحمر وجهه قليلا . وخشى أن يكون الموقف قد طال

وأنه قد قطع عليها السير . فأبدى لها أسفه سريعاً . . وتنحى عن طريقها واستأذنها فى أن يسير إلى جانبها قليلا حتى يتم حديثه . . فأذنت له ومشيا إلى محطة المترو وهو يقول :

— إنى جئت إليك أحجز محلا لمشاهدة قصة هذا المساء!.

— شباك التذاكر ليس هنا ! إنه هناك فى المسرح .

— وما يمنع أن يكون فى أى مكان تحلين فيه ! هو الذى يجب أن يتبعك . . . ككل شىء وكل إنسان !

فالتفتت إليـــه تستجلى أمره وكأنما أدركت قليلا حقيقة غرضه :

— وكيف عرفت أنى اقطن هذا الحى وهذا الفندق ؟

— عجباً ! اتقطنين هذا الحى وهذا الفندق !! إذن انت تقطنين هذا الحى وهذا الفندق !

فنظرت إليه فاحصة كمن ينظر إلى مخلوق عجيب لكنه مضى يقول :

— وافرحتاه ! أنا ايضاً اقطن هذا الحى وهذا الفندق !

فقالت فى لهجة المستريب :

— منذ زمن طويل ؟!

— منذ . . . لست ادرى . . . نعم منذ زمن طويل !

فلم تنبس الفتاة ، وساد بينهما صمت عميق . . . وشعر محسن ببرد يكتنف الموقف ورأى محطة المترو قد أصبحت منهما على قيد خطوات ، وخشى ان تضطره هى فجأة إلى الافتراق عنها ولم يقل بعد شيئاً يثبت إلى الأرض هذه الصلة الطائرة . . . فاندفع يقول فى غير تبصر :

— ما اجمل هـذا الصباح ! لقد استيقظت على اغنية « كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتى ! لـكن . . بأى صوت واى غناء !!

وكأن الفتاة لم تسمع شيئاً . فقد لزمت الصمت . وكانت قد دنت من سلم « المترو » الأرضى . فالتفتت إلى محسن ومدت يدها إليه قائلة فى صوت كله تحفظ ، كأنها تخاطب شخصاً لاتعرفه ولا تحرص على ان تعرفه :

— عم صباحا ياسيدى !

وهبطت السلم واختفت فى لمح البصر تاركة الفتى فى مكانه كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد !

* * *

ثاب محسن إلى رشده ولكن الدهش لم يفارقه . لماذا تركته على هذا النحو ! أكان مسرفاً فى حديثه ؟ لكن لماذا ؟ وماذا كان يجب عليه إذن أن يقول !

واسترسل فى التفكير برهة يقلب الأمر على وجوهه . إلى أن انتهى به حديث النفس إلى شاطىء هادىء : الرجاء ، والرضى بما حدث حتى اليوم . فان حياته منذ اليوم إلى جوارها شىء ليس بالقليل . بل إنه الآن يستطيع أن يعرف عنها الكثير . يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل . وأن يعرف مع من تعيش هنا ؟ ولم يفكر محسن أكثر من ذلك . فقد جرى لساعته إلى الفندق وصعد إلى الطابق الرابع وبحث عن الحجرة التى تقع أسفل حجرته وقرأ رقمها : «٣٨»

ثم نزل فى الحال إلى صاحبة الفندق فحياها فى ابتسامة رقيقة وحرك شفتيه متردداً لايدرى بعد ، كيف يصل إلى غرضه دون أن يبدو عليه شىء . ولكن المرأة ابتدرته :

— أراض عن حجرتك ياسيدى ؟

ففتح هذا السؤال للفتى الطريق :

— لابأس بها . وان كنت أفضل الحجرة السفلى ؟

— السفلى ؟ فى الطابق الرابع ؟ إنها مشغولة ياسيدى !

— تشغلها أسرة ؟ ؟

— كلا يا سيدى بل آنسة بمفردها !

فأخفى الفتى سروراً كاد يشرق به وجهه :

— بمفردها !

ثم استطرد فى الحال :

— نعم . إن الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشاب ، تسعى وراء رزقها بمفردها . نعم . هذه الآنسة إن صدق ظنى ؛ فهى عاملة شباك التذاكر بمسرح الأوديون !. .

— صدق ظنك يا سيدى .

— نعم . انى أختلف إلى الأوديون كثيراً ... هى ، إن صدقت ذاكرتى : مدموازيل ... مارى ؟ .

فابتسمت المرأة ابتسامة، لا أحد يدرى إن كانت تنم عن خبث ومكر وإدراك ، أو انها لا تنم إلا عن بساطة وملاطفة :

— خانتك ذاكرتك هذه المرة يا سيدى . إنها تدعى مدموازيل سوزى ديبون !

— سوزى !

انزلق هذا اللفظ من بين شفتيه وهو فى نشوة من فرح داخلى يشبه الذهول ، وتنبه من فوره وضبط نفسه والتفت إلى المرأة وقال :

— أشكرك ياسيدتى على هـذا الوقت الذى أضعته عليك ... أشكرك !

ثم تركها وخرج إلى الطريق سريعاً يهمس :

— سوزى !

الفصل الثامن

انفق الفتى ما بقى من ذلك الضحى هائماً على وجهه فى طرقات ذلك الحى ، جاعلا من شأنه البحث عن مطعم رخيص ، يلجأ إليه فى ايام الضنك ، وهى كل الأيام ، عدا اليوم الأول والثانى من كل شهر . وقد وجد ضالته فى شارع « مونيلمونتان » ؛ .. إنها شبه « حانة » توسم فيها النظافة مع قلة النفقة ، فقد قرأ فى لوحة من ورق « الكرتون » معلقة على بابها ان ثمن الأكلة الكاملة مع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام . وكان الظهر قد أقبل ، وأحس محسن الجوع ، فدخل ذلك المطعم واتخذ له مجلساً فى احد الأركان ، وجاءه الغلام ، فطلب إليه شريحة من لحم الثور مشوية مع البطاطس ، واعتدل فى جلسته مطمئناً يفحص وجوه الحاضرين . إنهم جميعاً من طبقة العمال ، اولئك الذين ينبذون الشوكة والسكين

ويقطعون الخبز واللحم بمدية الجيب . . !

ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية ، والجباه المتصببة عرقا ، والثياب التى تقطر بؤسا . فمحسن لا يشعر دائما أنه فى مكانه إلا بين أمثال هؤلاء وهو يوم يدفعه الرخاء إلى مطعم فاخر . فانه يدخله دائما خائفا كالغريب ، وجعل الفتى يقضم رغيفه قضما خفيفا فى انتظار الغداء ، ويصغى فى أعماق نفسه إلى تلك الرباعية من رباعيات عمر الخيام : « اذا اردت أن تعرف الصفاء والسلام ، فاحدب على تعساء الحياة ، أولئك الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون فى شقائهم ، عندئذ تظفر بالسعادة ! »

نعم انه فعلا يجد فى نفسه الآن شيئا من تلك السعادة الهادئة الصافية فى هذا المكان المتواضع . وسمع حواراً على مقربة منه ؛ بين صاحب المطعم البدين وبين عامل من العمال شاحب الوجه حاد النظرات :

— لن أتناول اليوم لحما ، انى مريض .

فقال صاحب الحان مشفقاً :

— نعم . ارى ذلك . انك تعيش وحـــدك فيما اعلم يامسيو ايفان ! . . .

— انى دائما وحدى فى الحياة .

هذه العبارة الأخيرة استرعت التفات محسن ، لا لأنها ذات نغم حزين ، بل لأن الفتى كان يتصور أنه هو وحده الذى يحيا دائما وحده فى الحياة . انه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل؛ ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئك الذين لا تطيب لهم السكنى الا داخل انفسهم . ذلك أن قليلا من النـاس من يملك نفسا رحبة غنية يستطيع أن يعيش فيها وأن يستغنى بها عن العالم الخارجى . انه يعتقـد دائما أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا الا أناسا لهـم نفوس كالفراديس ، تشقها الأنهـار ، وتنيرها الشموس ، وتتلألأ فيها الكنوز ، فهى عالم من الفتنة والسحر لانهاية لبدائعه وأسراره . . .

وأبطأ طبق الحساء على جاره العامل المريض ، فأبصره

قد أخرج من جيبه كتابا ، جعل يلتهم صفحاته بدل الطعام ، وودمحسن لو عرف عنوان الكتاب . ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يميل بجسمه ويختلس النظر ، ففاجأته عين الرجل ، فارتبك الفتى وأشار إلى الكتاب :

— معذرة ! هذا الفضول منى ، إنى أحب الكتب ، لاشك أنه كتاب لذيذ !

فأرسل إليه الرجل نظرات عميقة . ولم يقل شيئاً ، لكنه مد يده وأرى الفتى العنوان على الغلاف ، فاستطاع محسن أن يقرأ :

— « رأس المال » : كارل ماركس .

* * *

لم يمض النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين محسن وذلك العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما إلى الآخر كما يأنس الغريب إلى الغريب ، وهو الواقع . فهذا الرجل روسى ترك بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضاً من أولئك الذين يعيشون

على القراءة والتفكير والوحدة . وقد دعا الفتى إلى حجرته الصغيرة التى يقطنها فى إحدى دور العمال . فرأى محسن الكتب مكدسة فى كل مكان ؛ ولم يستطلع محسن شيئاً عن دخيلة الرجل، لكنه أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحاً عميقاً . فقد قال وهو يعد له الشاى على موقد فى أحد الأركان:

ـ لكم أشعر أن وطأة مرضى قد خفت قليلا منذ لقائنا ، لست أدرى لماذا ؟

وقدم للفتى قدح الشاى ، وجلس هو على صندوق قديم من الخشب الأبيض . فقد أكرم ضيفه بالكرسى الوحيد فى الحجرة ، ورشف محسن رشفة وهو يقول :

— وأنت يامسيو إيفانوفتش ؟ ألا تحب الشاى ؟

— إنى أفضل جرعة من « الفودكا » . آه إن هذا الشراب مع « تولستوى » ، هما كل ما أحب الآن من الروسيا .

ولمح محسن بعض المرارة فى كلام الرجل ، فقال له فى سذاجة :

— كيف ذلك ؟ إن الروسيا الآن هى جنة الفقراء .

فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :

— أتظن ؟ إن جنة الفقراء لن تكون على هذه الأرض .

وصمت الرجل قليلا ثم قام إلى زجاجة « الفودكا » فتناول منها جرعة وهو يقول :

— أنت أيضاً ممن يعتقدون فى هذه الخرافة : جنة الفقراء ! إنى فكرت فى أمرها كثيراً ، ومن ذا الذى لم يفكر فيها ؟ تلك مشكلة الدنيا التى لم تحل : « وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض » . من أجل هذه المشكلة وحدها ظهرت الرسل والأنبياء !

— يا مسيو إيفان . لست أرى رأيك فى أن المشكلة لم تحل ! إن الأنبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول .

فتفكر الرجل قليلا ثم قال كالمخاطب لنفسه :

— أنبياؤكم أنتم . . نعم هذا من الجائز . . إن الشرق قد حل المعضلة فى يوم ما . هذا لاريب فيه . إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لايمكن أن تقوم على هذه الأرض . وأنه

ليس فى مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء. فأدخلوا فى القسمة «مملكة السماء». وجعلوا أساس التوزيع بين الناس «الأرض والسماء» معاً. فمن حرم الحظ فى جنة الأرض، فحقه محفوظ فى جنة السماء. هذا جميل. ولو استمرت هذه المبادىء وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلى العالم كله فى هذا الأتون المضطرم. ولكن «الغرب» أراد هو أيضاً أن يكون له أنبياؤه الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد. وكان هذا الضوء منبعثاً هذه المرة من باطن الأرض لا آتيا من أعالى السماء، هو ضوء العلم الحديث. فجاء نبينا «كارل ماركس» ومعه إنجيله الأرضى: «رأس المال» وأراد أن يحقق العدل على هذه الأرض، فقسم «الأرض» وحدها بين الناس ونسى «السماء»، فماذا حدث؟ حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض. ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتاً على «هذه الأرض»!!.

وتأمل محسن قليلا هذا الكلام. ثم قال كالمخاطب لنفسه:

— كمن يلتقى تفاحة بين أطفال يتلمظون!

ـــ لقد ألقى قنبلة « المادية والبغضاء واللهفة والعجلة » بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هنالك غير « الأرض » ؛ يوم أخرج « السماء » من الحساب لأن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة (الصبر والأمل) فى النفوس يوم قالوا للناس (لا تتهالكوا على الأرض ، ليست الأرض كل شىء . إن هنالك شيئاً آخر غير (الأرض) يدخل فى (التوزيع) . آه إن أنبياء الشرق هم العباقرة حقاً ! !

وصمت الرجل قليلا ثم مضى يقول :

ـــ إن روح (المسيحية) كما نبعت فى الشرق : هى المحبة والمثل الأعلى ، وروح (الاسلام) الايمان والنظام ، ومسيحية اليوم فى الغرب هى (الماركسية) وهى كذلك لها مثلها الأعلى : لا فى محبة الناس بعضهم بعضاً وتبشير الفقراء (بمملكة السماء) ، وحضهم على إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، بل باغرائهم بمملكة تقام على أنقاض طبقة وأشلاء طبقة ، ونصحهم

بالهجوم على قيصر ، وأخذ ما لقيصر ، وإن (إنجيل) هذا الدين : كتاب (رأس المال) تجد أيضاً فى بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ، كتنبؤات (يوحنا) فى رؤياه ، ففيه توعد بانهيار هذا العالم وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم : أى أجسام تسير بغير رؤوس فوق المناكب . ياله من حلم مخيف !

أما (إسلام) العصر الحديث فى الغرب فهى (الفاشستية) . وهى كذلك لها طابع الايمان والنظام . إيمان لا بالله ، بل (بزعيم) من البشر . ونظام لا يؤدى إلى التوازن الاجتماعى بالتواضع والزكاة . إنما هو نظام فرضته يد الإرهاب ليؤدى إلى مطامع الاستعمار ، والوثوب على الضعيف من الشعوب . ولهذا الدين أيضاً (كتابه) وخطبه (المنبرية) الملتهبة ، لا بحرارة عقيدة سماوية ولكن بحرارة قوة حيوانية وشراهة دموية . آه أيها الصديق . تلك هى الديانات التى استطاع الغرب أن يخرجها للناس ، يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانا !

فرفع محسن رأسه بعد طراق طويل :

— يدهشنى منك هذا القول يا مسيو إيفان ، وأنت من العمال ؟ !

— نعم ، أنا من العمال ، ومن الفقراء . . . لكن ، لى من سوء الحظ رأس يفكر . إنى أعرف ان وعود اديان (الغرب) الجديدة كلها هراء . وإن هو إلا تغرير بالعمال والفقراء . إن (الماركسية) و (الفاشستية) قد أخذا عن اديان (الشرق) طرقها واساليبها ، وفهما جيداً ان كل خطة النبى هى استمالة الساخطين والمتذمرين والمعوزين وهم الكثرة الغالبة . هكذا فعل عيسى ومحمد . هل تبعهما اول الأمر غير العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء ؟ ذلك ان طبقة الراضين والموسرين ليست فى حاجة إلى ان تتبع أحداً ! وهى مع ذلك قلة نادرة وسط خضم الدهماء . فالدهماء هم سند الدين ، وهم القوة فى كف النبى . لقد ادرك ذلك جيداً أنبياء اوروبا فى العصر الحديث ودرسوا « Technique » النبوة

على أيدى الأساتذة الشرقيين . فبنوا كل شيء على اساس واحد: الدهماء . وجعلوا يتنافسون فى إرضاء هذه الكتل الآدمية بالوعود : وعود واقعية قريبة الأجل ، (وهنا كل غباء هؤلاء الأنبياء !) . . إن التنافس بين الدينين ليبدو لى شديد الخطر .. وإنى لأتنبأ لك منذ الآن بوقوع نوع من (الحروب الصليبية) بين (الماركسية) و (الفاشستية) ! تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء . وتتناثر فيها الجثث وتتطاير الأشلاء . هذا كل مكسبنا إنهم لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ والعزاء الجميل الذى غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيين . .

— أى وهم وأى عزاء ؟!

— جنة السماء ومملكة السماء !

— اتسمى هذا وهما ؟

— آه معذرة . . معذرة ! إنك مؤمن ! ما اسعدك انت ! وما أحسن حظك !

الفصل التاسع

خرج أندريه من العمل فى استراحة الغداء ، فوجد رسالة من محســـن تنتظره . فلم يدهش. ان رسائل محسن اليه قد كثرت منذ أن غادر منزل الأسرة فى (كوربفوا) جاريا خلف قلبه ، فض أندريه الرسالة وقرأ :

عزيزى أندريه :

لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن هذا الصباح قد حدث أمر جلل ، بينما أنا قرب النافذة أصغى إليها خفية إذا الباب يطرق وإذا (الغســـالة) قد حملت إلىّ ثيابى النظيفة وقدمت إلىّ ورقة الحساب : عشرة فرنكات ، فلمعت فى ذهنى عنـد ذاك فكرة أعجبتنى وأرجو أن تعجبك ، ذلك أنى تناولت الورقة وسطرت فى ذيلها : (سيدتى : لا أجد معى الساعة نقوداً ، فاذا تفضلت وأديت عنى الحساب فانى

لا أنسى لك هذه اليد . ولك جزيل الشكر سلفاً مع احترام المخلص : جارك رقم ٤٨) ودفعت الورقة إلى الغسالة وأحلتها على الحجرة السفلى التى تقطنها جارتى مـــدموازيل «س»!

ومضت الغسالة بالفعل وبقيت أنا أرتجف قلقا . أتراها تؤدى عنى ؟ واخجلتاه إذا رفضت ! وإذا قبلت فما يكون معنى هذا ؟ ينبغى أن أبادر فأبشرك . لقد عادت الغسالة إلى بعد هنيهة تقول فى ابتسام إن مدموازيل «س» جارتى قد دفعت فى الحال دون أن تنبس بلفظ ؟

ماذا تقول فى كل ذلك ؟ ؟ (محسن . . .)

ابتسم أندريه وطوى الرسالة ، وأشعل لفافة تبغ ودخن قليلا ثم أخرج ورقة وكتب :

عزيزى محسن :

ماذا أقول فى كل ذلك ؟ أقول إن عهدى بالمحبين أن يظهروا دائما أمام الفتيات بمظهر النعمة واليسر والرخاء وأن يكونوا هم على الأقل الدائنين وقت الاقتضاء ، ولكنك قد

عكست الوضع وأصبحت مدينا لفاتنتك بكل شيء، أى: (بالقلب وبفاتورة الحساب) إن مسألة التجائك فى الاقتراض إلى مدموازيل (س) ولما تتوثق بينكما المعرفة لغاية فى الجرأة! وإنى لأعجب جدا لهذا الحادث، وأرى فيه فجر عهد جديد فى تاريخ الغرام؟ (أندريه ...)

***

مرت أيام بعد ذلك والفتاة تصادف الفتى، تارة بباب الفندق وتارة فى المصعد. ولا غرابة فى ذلك، فهما متحدان فى المسكن. إنما الغريب فى الأمر أنه منذ أن أدت عنه الحساب لم يعد يقبل عليها ذلك الاقبال الذى كانت تراه منه، ولم يعد يحييها إلا تحية مختصرة، واذا جمعهما المصعد فهو مطرق لا يريد ان يتكلم، ولا أن يشير بحركة تنم عن اهتمام لأمرها، هو الذى كان ينتظر منه على أن يبادر فيشكرها على عطفها الكريم. انه لم يشكرها، بل انه لم يشر قط إلى ماحدث بذكر أو تلميح. وانفردت سوزى فى حجرتها ذات مساء وجعلت تفكر قليلا فى أمر هذا الفتى الغريب. أهو شرقى

متوحش لايعرف الآداب واللياقة ؟ لكن الأمر فى ذاته أبسط من أن يحتاج إلى معرفة بالأدب أو اللياقة . ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلا ، انما هو تصرف مقصود ، لماذا ؟ هذا مالم تهتد اليه الفتاة ، أن هذا الفتى غريب الأطوار . هذا كل ما تستطيع أن تفهمه .

* * *

لم يكد ينتهى الأسبوع ، حتى تلقى أندريه هذه الرسالة :

عزيزى أندريه .

الآن ، آن الأوان أن أفى بدينى ، ولا يليق أن أرد إليها عشرة فرنكات ، إنما يحسن بى أن أقدم إليها هدية . ماذا ترى أن تكون هديتى إليها ؟ أشر على سريعاً ؟ . «محسن . .»

فأسرع الفرنسى وارسل الجواب :

عزيزى محسن :

إن باريس كلها لم تخلق إلا للنساء . وكل تجارة باريس هى فى الهدايا التى تقدم إلى النساء . ماعليك ياصاحبى إلا أن تمشى قليلا فى أى شارع من شوارع باريس . فانك واجد

عشرات الحوانيت التى تعرض ما تشتهى لصاحبتك من حقائب اليد ، وصناديق « البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ، وقد مضى نصحنا لك فى هذا ولم تقبل النصح ؟

« أندريه . . . »

قرأ محسن هذه العبارة ورددها المخاطب لنفسه فى غير اقتناع

ـ حقائب يد وصناديق « بودرة » وزهور وعطور ، أشياء لا معنى لها ، إنك أحمق يامسيو اندريه !

ثم مزق الرسالة ووضع القبعة السوداء على رأسه ونزل إلى الطريق هائما على وجهه طول يومه فى شوارع باريس يفكر ويبحث عن الهدية دون أن يدخل حانوتا أو يرسل عينه إلى وجه متجر . فهو لم يعتد النظر الا إلى واجهات حوانيت الكتب . وقادته قدمه مصادفة آخر الأمر الى سوق الطيور فى الضفة اليمنى من نهر السين ؛ . . وقرع سمعه صوت ببغاء صغير ينادى المارة بصفيره وكلماته الملقنة ، فرفع محسن بصره إليه وتفكر هنيهة ، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع الببغاء ،

وخرج حاملا قفصاً ينبعث منه صفير وضجيج ، ومشى به مشية المنتصر الذى ظفر بضالته !! لكنه لم يسر خطوات فى الطريق ، حتى وجد القفص الذى فى يده قد تبعته القطط والكلاب الضالة ؛ وإذا منظره وهو حامل الببغاء وكلاب الحى خلفه قد بدأ يستلفت أنظار المارة ، وخشى أن يجتمع حوله العاطلون والصغار . فاستأجر سيارة حملته مع الهدية إلى الفندق. وما إن آوى محسن إلى حجرته حتى خلع ثيابه على عجل وجلس إلى ببغائه طول الليل ساهراً يلقنه كلمات وعبارات . إلى أن رضى عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع فى عنق قفصه حبلا رقيقاً وفتح نافذته وأدلى بالقفص فى الفضاء إلى أن حط على حاجز نافذة الفتاة ، ثم جعل يناجيه مناجاة (حافظ الشيرازى) للببغاء فى قصيدته التى قال فيها :

(أيها الببغاء ! أيها الناطق بالأحاجى ! احرص إلى الأبد على ريشك زاهيا فى لون الياقوت ، وعلى قلبك فياضا بالمرح ! آه أيها الحظ ، اسكب على وجوهنا ماء الورد ، ولا تبح للصاحى

بأسرار النشوة . نعم ، إن الحكمة هى الثراء الحقيقى ، ولكن .. كم تساوى إلى جانب نظرة الحب ! . . .)

* * *

استيقظت سوزى فى الصباح واتجهت إلى نافذتها مترنمة كعادتها ، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها أمام ببغاء فى قفص . فدهشت ثم أبصرت الحبل المدلى ، فأدركت من أين هبط ، فرفعت عينيها إلى الطابق العلوى ، وإذا الفتى فى نافذته يبسم لها كأنما كان فى الانتظار ، وحياها تحية الصباح فردت عليه التحية باسمة ، ثم أشارت إلى القفص قائلة :

ـــ لمن هذا ؟

ـــ لك .

ـــ لى أنا ؟ شكراً لك ياسيدى ، لكن لماذا ؟

ـــ هذا ما استطعت أن أقدمه إليك اعترافاً بجميلك فأرجو أن تقبليه منى !

ـــ ما أجمل هذا الببغاء ! ما اسمه ؟!

ـــ اسمه ... « محسن » .

ـــ « محسن » !

وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر البيغاء وصاح:

ـــ أحبك ، أحبك ، أحبك !

فضحكت سوزى وقالت :

ـــ عجباً ! من لقنه هذه الكلمات ؟

فأجاب الفتى لفوره :

ـــ لاأحد ... فى « عينيه » نظر » ، هذا كل مافى الأمر .!

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب . وقالت :

ـــ أكرر لك شكرى يا ... مسيو ...

ـــ أتسمحين أن أقدم إليك نفسى .. ولو أن التقدم من هذه النافذة العالية لايسمى تقدماً ... فالأصح أن أقول: أن ألقى إليك بنفسى !

فضحكت الفتاة وقالت :

ـــ يسرنى بالطبع ذلك . غير انى لا أضمن لك الوصول

سالماً إلى نافذتى . فالق باسمك وحده الآن فهو يكفى .

فقال الفتى :

— اسمى « محسن » . . .

فنظرت إليه نظرة استغراب :

— كالبغاء ؟!

— نعم . لى الشرف أن يكون اسمى كاسم ببغائك !

فابتسمت ولم تجب ، وظن محسن أنه قد تحدث إليها أكثر مما ينبغى ، وخيل إليه أنه ربما أثقل عليها . وخشى أن يزيد فى الكلام ، فتبدر بادرة تمحو من شفتيها هذا الابتسام ، فحياها سريعا باشارة خفيفة ، وابتعد عن النافذة مختفيا لفوره عن أنظارها . . . ثم جلس إلى مكتبه يتأمل الأمر . عجباً ، ما معنى الجلوس ، وفيم التأمل ! لقد كانت أمامه ، وكان بينهما حديث . لماذا تركها ؟ ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود إليها ؟ . ولكن نافذتها كانت قد أغلقت . . .

الفصل العاشر

شعر محسن حوله ببرد الوحدة . وأراد أن يحادث أحداً أو يذهب لمقابلة أحد . غير أن الوحيد الذى يستطيع أن يفضى إليه بشىء هو . أندريه . لا . إنه ليس مجنونا حتى يخبر أندريه اليوم بما حدث ، فيسخر من خيبته . ويلقى على مسامعه مرة أخرى : « إن المرأة تكسب بالواقع لا بالخيال » آه الواقع ! الواقع هو ... انه هو الواقع فى حب لا أمل فيه ، ولا يجد إلى جانبه حتى من يعزيه ! وتذكر ايفانوفتش . نعم ، لعل ذلك الروسى المنفى مثله فى مجاهل « العزلة » يستطيع أن يسرى عنه الساعة بحديثه الغريب واطلاعه وتأملاته . . .

وكان المساء قد أقبل وأدرك أن صاحبه لابد قابع فى حجرته الحقيرة تحت سقف ذلك المنزل العتيق . فذهب إليه من فوره ، فوجده كما توقع أن يراه جالساً فوق صندوقه

الخشبى . كما يجلس الثراة فوق «الشيزلونج» . وبين يديه كتاب ضخم ينهل من صفحاته كما ينهل الألمانى من كوب « جعة » ذى زبد .

فما ان رفع رأسه ورأى الفتى . حتى أشرقت أساريره المظلمة ، وانتعش قليلا وجهه الذابل . وطرح الكتاب من يده . ونهض يهيىء للزائر مكاناً خليقاً بجلوسه . فمنعه محسن باشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله على حافة الصندوق . وصمت قليلا . وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً فى نفسه . ولم يتردد طويلا . فقد انفجر على الرغم منه :

— يامسيو إيفان! إنى لست سعيداً . ولعلك أنت أيضاً كذلك. إن سر تعاستنا هو أننا نعيش فى هذه الحجرات المغلقة . إننا نجهل الواقع وطرائقه المباشرة لاشىء يكتسب بالخيال فى هذه الحياة ...

فهز الروسى رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

— من علمك هذا الكلام أيها الشرقى !

— هى البداهة ، ولكن أعيننا هى التى لا ترى . .

ـــ لا . لست اصدقك . ذاك كلام لاينبغى ان يقوله مثلك ...

فمرطيف أندريه برأس محسن . لكنه لم يقل شيئا ومضى إيفان يقول :

ـــ الواقع والطرق العملية المباشرة ؟ تلك بالضبط كل حياة الحيوان . الفاصل الوحيد بين الانسان والحيوان هو « الخيال » . إن اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة خارج عالم الواقع والمادة ، اليوم الذى يلجأ فيه الحيوان إلى طرق معنوية غير مباشرة للوصول إلى غاياته ، اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يمضى الليل « يحلم » فى غابته المقمرة بدلا من مطاردة الفريسة . هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية . الحلم هو العالم العلوى الذى لا يدخله حيوان. الخيال هو تاج السيادة والسمو الذى تميز به الإنسان !

وسكت لحظة . فقال محسن :

ـــ نعم ، ولكن « الواقع » ..

فانطلق الروسى :

— « الواقع » ؟ الواقع ... إنى لا أحترم الآن كثيراً هذه الكلمة !

ومر طيف أندريه مرة أخرى برأس الفتى . حقيقة . إن صديقه الفرنسى هو الذى يذكر دائما هذه « الكلمة » ؛ ولكن هذا الروسى الثائر ، الواقف فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب ... من يضمن لمحسن انه على حق فى كل هذه التصورات . وبدا الشك على وجه الفتى ... وقرأ إيفان مايجول بخاطره . فصاح به وهو يهزه من كتفيه :

— آه ! (الخيال) هو ليل الحياة الجميل ! هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل إن عالم (الواقع) لا يكفى وحده لحياة البشر . إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة ! نعم ، مرة أخرى أقول لك إنى شديدة الإعجاب بأنبياء الشرق . إن المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها : هى أنهم قدموا للناس عالماً آخر . عامراً بسكان من ملائكة ذوات أجنحة

جميلة بيضاء . زاخراً بجنات فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء كألسنة الأبالسة ، الهائمة كالخفافيش . . . فى هذا (العالم) استطاعت البشرية أن تعيش ، حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع . (الغرب) أيضاً حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هذه العوالم . فظهر فيه أنبياء الخيال منشئوا « الأتيوبيا » . فصنع توماس مور : « جزيرة الخيال » . وكامبانيلا : « مدينة الشمس » . وموريللى : « قانون الطبيعة » . وكابيه : « رحلة إلى إيكارى » ! ! ؛ ألعاب صبيانية . كتلك القصور والقلاع والجنان التى يقيمها الأطفال على شاطىء البحر من الرمال ! نعم ، خيال مرتب بيد المنطق مزين بنظريات العلم والفلسفة . كما تزين قصور الصبية بأوراق الحلوى الفضية الذهبية . . . لكن كم من البشر عاش فى هذه (العوالم) التى صنعتها أيدى (العلماء) أنبياء الغرب ؟ ؟ آه ، إن الغرب إنما عاش أجمل حياته فى ذلك الحلم السماوى وذلك العالم العلوى الذى صنعه الشرق . وإن ضياع الغرب لم يبدأ

إلا يوم أفاق من هذا الحلم، ونزل إلى عالم واقعه يدب فى هضابه المتحجرة ووديانه الجافة كما تدب الحشرات ...

وسكت الروسى لحظة، ثم عاد يقول :

— آه ! .. السماء، الجنة، الجحيم ! جرد عالمنا الأرضى من هذه الكلمات الثلاث التى بنيت فى الشرق، تنهار فى الحال أروع أعمالنا الفنية . كل ما استطعنا أن نخلق من جمال إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة السماء، إنى أعرف أن (الغرب) اليوم موضع تقدير وإكبار، لعلمه واستكشافاته وإنتاجه واختراعاته، لكن .. ماقيمة هذا إلى جانب ذلك الاستكشاف الأعظم الذى ظهر فى الشرق، إن الغرب يستكشف الأرض، والشرق يستكشف السماء . إن الذى استطاع أن يغمر البشرية كلها فى حلم يدوم الأحقاب، إن الذى استطاع أن يصنع مثل هذا (الحلم) لهو حقيقة فوق مستوى البشر . إنا نمجد ذلك الذى أوجد للانسانية واسكن الانسانية: قارة جديدة، .. لكنا لانرى مجد ذلك الذى أصعد

الإنسانية وأسكن الإنسانية : السماء !

وتأمل محسن ملياً قول الروسى وهو مطرق ، . . .

نعم ، . إنه ليشعر دائماً أنه لا يسكن الأرض وحدها . إن حياته ممتدة أيضاً إلى السماء ، وإن له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين أهل السماء . إنه لن ينسى (السيدة زينب) الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات . إن لها وجوداً حقيقياً فى حياته . مامن مرة وقع فى شدة إلا وجد العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبية . كل نجاح ظفر به فى الحياة هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة من الحظ إنما هى ابتسامة من شفتيها . إنه يتخيل هيئتها ووجهها وملامحها ؛ . . ويعتقد أنها فى السماء بردائها الأبيض إنما تنظر إليه دائماً وترعاه وتجعله من شأنها . كأن هذا هو كل عملها . لكن هنالك ساعات تتجهم له فيها الحياة ، وتقسو عليه الظروف ، ويرى كأن « السيدة » قد نسيته . فيفطن ويذكر لوقته إنه فى تلك الساعات وتلك الظروف ، انما هو الذى كان

قد نسيها ، نعم انها لاتنسى الا من ينساها . اننا أهل الأرض لنشغل أحياناً بمانصادف من فوز أو لذة أو متعة فنقع فى غشية من غرورنا . ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها . عند ذاك تتركنا السماء فى حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة. فلانستيقظ ونرى ماصرنا اليه إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وإلى العطف العلوى . ذكر الفتى كل ذلك . لقد كان مسجد « السيدة زينب » هو المكان الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس. وكانت « السيدة » هى التى تقلب له صفحات الكتب فيما خيل إليه ، وكانت هى التى تصبره وتشد عزيمته ، وهى التى كانت تجفف بأناملها الرقيقة النقية دموع حبه الأول وآلامه الأولى. انه لم يكن وحيداً . آه . . ما أقوى الإنسان الذى يعتقد أن له صديقاً ونصيراً من أهل السماء ! انه كان يحملها نصيبها من التبعات اذا أخفق فى خطوة فان « السيدة » هى التى تخلت عنه ، ولعلها أرادت هذا الاخفاق لحكمة لا يعلمها هو ، وإذا وضع أمله فى شىء اتجه إليها ضارعاً أن تقف إلى جانبه وتضم

همسها إلى همسه وصوتها إلى صوته فى رجاء « الله » . ان هذا الإحساس جميل ، وهذا الإعتقاد مريح . نعم ، لو شعر محسن لحظة انه فى وحدة مطلقة ، وأن السماء ليس لها وجود ؛ وانها جرداء جدباء غير عامرة بكائنات عليا ، تتصل حياته بحياتها ، وانه قد خلى بينه وبين هذه الأرض وحدها إلى الأبد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوماً واحداً !

عندئذ لمعت فى رأس الفتى كسنا البرق صورة من حياته فى الغرب . وللمرة الأولى تنبه الى أمر مخيف : انه لم يذكر « السيدة » فى حرارة إلا الآن ، بعد حديث « إيفان » . لقد مرت الأيام تلو الأيام وهو يطالع أفكاراً مختلفة من الأغريق إلى فولتير . ويشاهد وقائع مضطربة ، من أزمات القرن الماضى إلى انقلابات ما بعد الحرب . انها لحمى تعصف بكل رأس . وان رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رؤوس ؛ فقاعة بين فقاقيع تملؤها الأفكار والحوادث ، وتتدافع فى شبه اناء من خمر مغلى . ليس فى حياته اليوم إذن مكان تهبط

فيه « السيدة » بردائها الأبيض ! وان روحه قد غار كما يغور النجم تحت شمس رأسه المحترق .

آه . . انه قد نسى حاميته التى فى السماء ! لو أنه أحس يدها على كتفه . . . لما تعثر فى خطاه أمام صورة (سوزى) .

الفصل الحادى عشر

فتح محسن عينيه فى الصباح، على شبه صوت ملائكى ينادى اسمه . أتراه صوتاً آتياً من السماء ؟ ولكن النداء تكرر واضحاً عذباً . فوثب الفتى من فراشه، وأصغى، ثم ابتسم : انه آت من النافذة السفلى . عجباً ! انها سوزى تقول فى نغمة موسيقية :

— محسن ! محسن !

فأسرع الفتى إلى النافذة كالمجنون :

— أتنادينى . ؟

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة فى شىء من الدهشة . ورأى الفتى يدها على قفص الببغاء، تقدم إليه حب (القرطم)، فأدرك كل شىء . فتخاذل وارتبك :

— معذرة . لقد نسيت انى أشترك مع ببغائك فى عين الاسم . . .

ورآها تبتسم . ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر

أنضر من زهر (النرسيس) فى أصص نافذتها . فتشجع وقال :

ــ نعم ، انى أشترك مع هذا البغاء فى الاسم ، ولكنى لا أشترك معه فى الحظ . ان الفرق بيننا عظيم . انه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه ، وتناجينه ، هــذا الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! آه . . لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب ، وأنا لا أستطيع أن أطمع فى مساواتى فى الحظ والنصيب بهذا البغاء !

فضحكت الفتاة وقالت :

ــ أتراه مطمعاً عسيراً ؟!

ــ أن أكون مثل هذا البغاء ؟ لست أطلب شيئاً الا أن أكون مثله بالضبط !

ــ ولكنك لست فى قفص .

ــ آه ياسيدتى ! انى فى قفص ، لا يراه كل الناس . . !

فنظرت إليه الفتاة مليا ثم قالت باسمة :

— إذا كنت حقيقة كذلك . فأنت تستحق إذن شيئاً من ذلك العطف الذى تمنحه الطيور السجينة فى الاقفاص .!

فأسرع الفتى يقول فى تضرع :

— ثق أنى أشد طيور الارض استحقاقاً لعطفك !فسألته الفتاة :

— وما نوع العطف الذى تريده منى ؟ انى بالطبع لا أستطيع أن أقدم إليك قليلا من (القرطم) !

— انك تستطيعين أن تتناولى معى قليلا من (القرطم) . . هذا المساء فى مطعم . . . فى أى مطعم يروقك . . .

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :

— يالك من مداعب ماهر !

— أنا ؟ آه ياسيدتى . لأول مرة أسمع من يصفنى بالمهارة فى شىء ، شكراً لك !

* * *

لم يأت العصر ، حتى كان محسن فى منزل أندريه ، يقيم

الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسى أمام المرآة ، وجعل ينظم له شعره الأشعث ، بينما أخذت « جرمين » تنظف معطفه الأسود بالبنزين وتزيل عنه البقع . ورأى الفتى اهتمام زميليه ، فصاح يحمسهما :

— نعم ، إصنعامنى إنسانا خليقاً بلقاء امرأة جميلة !

فابتسمت جرمين وقالت !

— عرفت اسمها أخيراً ؟

— سوزى !

لفظها الفتى همساً كمن يرتل صلاة ، ولكن جرمين سمعته فقالت باسمة :

— اسم جميل ، والموعد أين ومتى !

— هذا المساء فى محطة المترو !

— وبعد ؟

— سنتناول العشاء . .

— فى أى مطعم ؟

— آه . . . صدقت . . . لست أدرى . . . يالمصيبة ! . نسيت التحرى عن المطعم الموافق . . . أسرعا ! أسرع ياأندريه وأخبرنى عن رأيك فى هذا الموضوع الخطير !

فصاح أندريه يائساً :

— لاتهتز هكذا ، لقد فسد ترتيب شعرك ، وتبعثرت خصلاته من جديد ، آه لقد ضاع تعبى فيك سدى !

— ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى . . .

— لا شىء أتفه من موضوع المطعم . هذا الذى تصفه بالخطورة والأهمية الكبرى ! . . كل شىء تافه تتخيله أنت دائماً هائلا ، لو كنت مكانك لأخذتها بكل بساطة إلى مطعم « بوكاردى » !

فضحكت جرمين ضحكة طويلة ، فنظر إليها زوجها نظرة العجب :

— لماذا تضحكين :

— إنه المطعم الذى ذهبت بى إليه يوم لقائنا الأول ،

ومع ذلك .. لم تشأ يومئذ أن تطلب من أجلى « أوردفر فاريية»!

ـــ أما زلت تذكرين تلك الحماقات !

فصاح محسن وهو يلتفت إليهما !

ـــ آه أحسنتما صنعاً بهذه الحماقات ! سأطلب لها أنا هذا « الأوردفر فاريه » !

فانتهره أندريه :

ـــ قلت لك : لاتهتز ! ولا تتحرك حتى أفرغ وأطمئن على منظرك !

فالتفت الفتى إلى المرآة وهو يقول فى قلق :

ـــ وهل تعتقد أن الحال سيدعو إلى الإطمئنان ؟ !

ـــ إن الأمر على كل حال لاينبغى أن يدعو إلى اليأس .!

فسكت محسن على مضض ... ثم عاد يقول سريعاً كمن تذكر شيئاً هاماً :

ـــ اسمع يا أندريه ! فى جيب معطفى قارورة «هو بيجان» من الصنف الغالى ، اشتريتها عملا بنصائحك الغالية . ألا ترى

أن أتعطر منها قبيل اللقاء، إنها كفيلة أن ...

— المسألة ليست مسألة « هو بيجان » !

— تريد أن تقول ...

فألقى أندريه نظرة أخيرة على شعر محسن ووجهه ، ثم صاح فى نبرة مرحة :

— أريد أن أقول إن لك الآن وجه عاشق يستطيع أن يذهب تواً إلى موعده !

فنهض محسن واتجه إلى جرمين الباسمة :

— أهو يخدعنى ؟

فقالت جرمين للفور وهى تقدم إليه المعطف :

— إنه يقول الحقيقة . البس معطفك ، وانطلق مطمئنا، أيها الفتى السعيد !

فارتدى محسن معطفه ، ووقف أمام المرآة يتأمل هيئته طويلا :

— المسألة مسألة ذوق ! مادام هذا المنظر يصلح فى رأيكما

للذهاب إلى المواعيد ، فليس من الكياسة أن أطعن فى ذوقكما!
إلى الملتقى !

قالها وهو يتحرك إلى الباب رافعاً قبعته السوداء فى الهواء، وشيعه أندريه وزوجته إلى السلم وهما يقولان باسمين :

ـــ تشجع !

* * *

انتظر محسن الفتاة إلى أن جاءت ، وذهبا إلى « بوكاردى» فتناولا العشاء ، ثم خرجا إلى « الجران بولفار » فشربا القهوة فى أحد المشارب ، ودقت الساعة العاشرة ، فنهضت سوزى طالبة العودة إلى مسكنها . عند ذاك فقط أفاق الفتى وثاب إلى رشده ... وأحس فجأة الجوع . فهو لم يأكل شيئاً فى المطعم ، هو الذى كان قد دخله جائعاً ، خرج منه جائعاً دون أن يشعر. وهل كان فى مقدوره وهو إلى جانبها أن يفكر فى أكل أو شرب. ان المعدة لتنام عند ما تستيقظ الروح انه لا يذكر شيئاً من أمره ، لكنه يذكر كل شىء من أمرها هى ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهى تتناول « الأوردفر فاريه » . ويذكر جمال

فمها وهو يشرب (البورجونى) ، ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة الخافتة عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو اليها ، أو الكلام الطويل فى أشياء لم يعد يذكر ماهى ...

ومرت الساعات كأنها اختلاجة من أهدابها ، وهاهو ذا قد حان وقت الافتراق عنها ! لا ، هذا مستحيل ، أبهذه السرعة قد وصلا إلى باب النزل ؟ لماذا يقسو القدر على الناس هذه القسوة ؟ ان الساعة لتطول كأنها الدهر عندما نقع فى كرب أو بلاء ، وأنها لتقصر كأنها ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم ! ولم يرع الفتى الايدها تمتد إليه مودعة قبل أن تدخل النزل ...

— لا . ان الوقت مازال متسعاً ، ونحن مازلنا فى أول الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به إليك ...

قالها محسن وهو محتفظ بيد سوزى فى يده فى حرص وخوف ... فقالت الفتاة :

— إنى لا أستطيع طبعاً أن أستقبلك فى حجرتى الساعة ولا أن أصعد إلى حجرتك ، فافض اذن بما تريد هاهنا الآن ، أو ... فلنسر قليلا فى هذا الشارع ...

ومشيا جنبا إلى جنب فى ذلك الطريق الطويل ذى الأشجار الكبيرة ، إلى أن بلغا حدود « پورت دى ليلاس » ، وعادا من عين الطريق إلى أن اقتربا من ميدان (جامبتا) . وفاجأتهما الأنوار فرجعا أدراجهما يحتميان فى ظلام الأشجار . والفتى لاينبس ، وهى صامتة صمت من ينتظر منه الأفضاء بشىء . . . وكأنما عيل صبرها . فقالت فى صوت خافت رقيق :

— ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

— كل شىء .

— إنى مصغية إليك .

فأراد محسن أن يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من رأسه كما تهرب العصافير من الأقفاص . إن لديه إحساسا عاريا ، ولاينبغى أن يظهره عاريا أمام سيدة ! لابد له من ثوب أنيق . فالمرأة يسرها دائماً الثوب الأنيق ، وإن كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة . إن هذه الفتاة لاشك تدرك ما عنده ، وهى لاتكتفى بذلك ، وهى إنما تدمى قدميها سيراً فى هذا الليل لتسمع الفاظاً يلذ لها سماعها فى ذاتها . . . فماذا تراها تفعل

بمشاعر قوية فى اطمار بالية ، وخشى محسن العاقبة ، وتغلب عليه الوهم فقال كالهامس :

ـــ لا .. لا أستطيع الآن ...

فقالت هى أيضاً كالهامسة :

ـــ لماذا !

ـــ غداً ، إذا شئت ...

ـــ بل الآن .

فتردد الفتى لحظة ، ثم تمالك وانطلق انطلاق الهارب الخائف ، الذى يريد أن يقنع عقله بالشجاعة والثبات ، قائلا كالمخاطب لنفسه :

ـــ لست جديراً أن أقول لك ما أريد الآن ، دعينى أبعث إليك غداً برسول عنى يحسن الكلام !

ـــ من هو ؟

ـــ الشاعر الأغريق القديم (أناكريون) ، سأحضره معى عصر الغد عند محطة المترو ، وسيفضى هو إليك بكل شىء!

الفصل الثانى عشر

كانت كل حياة محسن فى الأربع والعشرين ساعة التالية : ترقب الموعد ، وإعداد نفسه وترويض لسانه وضبط أعصابه لمواجهة الموقف . . . وجاء العصر فارتدى ثيابه فى عناية وهم بالخروج ، ولكن الباب طرق عليه ، وظهرت خادم النزل تقدم إليه رسالة وردت « بالبريد السريع » ففض الفتى غلافها بيد ترتجف ، وقرأ فى لمحة واحدة :

صديقى . . .

أرجو منك أن لا تنتظرنى هـــذا المساء ، فى المكان المعروف ، فانى سأبقى فى العمل إلى ساعة متأخرة لم تكن فى الحساب ، إذا كنت مع ذلك فى مسكنك ، فانى أمر بك عند منتصف العاشرة ، لأقول لك « بونسوار » ؟ سوزى

عاد الدم يجرى إلى وجه الفتى ، وهدأ تنفسه ، وانتظمت دقات قلبه . ثم خلع سترته وجلس إلى مكتبه يفكر باسماً ،

ويتلو خطابها على مهل . ووقف عند كلمة « صديق » ثم عند قولها « فانى أمر بك » . فأحس طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه إلى ماحوله . إنها ستأتى هنا بعد قليل . ما كل هذه الكتب المكدسة فى غير ترتيب . ينبغى أن يقر فى الحال النظام محل الفوضى . وقام من فوره إلى حجـــرته ، يهيئها للاستقبال العظيم .

* * *

وجاء الليل وانتشر الظلام فى سماء شبه صافية تؤذن بانتهاء الشتاء ، ووقف محسن قرب النافذة ينظر إلى النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء ، وأذنه مرهفة إلى الباب ، فى قلق ونفاد صبر ، وخيل إليه مرات أنه يسمع نقراً خفيفاً على بابه ، فكان يسرع إلى فتحه فلا يجد أحداً . لقد اختلط فى رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل والانتظار . وسمع أخيراً طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ رأسه . فأيقن أنها هى .. فأصلح من شأنه على عجل ، وفتح الباب ... نعم ، إنها هى ... هذه المرة ...

بقبعتها ومعطفها وبقية ثياب الخروج ، ودخلت مبتسمة كأنها زنبقة :

— لقد جئت تواكما ترى ، قبل أن أمر بحجرتى آه ... أهذه حجرتك ؟ . . . إنها جميلة . . .

— الآن فقط ، أرى أنا أنها جميلة .

— ما كل هذه الكتب ؟ إنك تقرأ كثيراً . أتلذ لك بهذا المقدار الحياة فى . . .

— وأنت ؟

— إنى أفضل الحياة فى . . . الحياة .

— أنت أيضاً !

— لماذا تنظر إلىَّ هكذا ؟

— اصبت . ارى الآن انى على خطأ ، ما الذى يعنينى من أمر حياتك أنت ، ما أنت إلا (حـــلم) يحيا فيه . . . الآخرون . . .

— ومن هم الآخرون ؟

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبث بصفحات كتاب فوق المكتب . وأرخى الفتى بصره ولم يجرؤ على المضى فى الكلام . . . ونظرت إليه لحظة ثم قالت فى صوت خافت رقيق :

— إنى مصغية إليك .

فتذكر محسن البارحة ، وفطن إلى مرادها . فرفع رأسه ، وقال :

— أتسمحين لى ان اقدم اليك من يستطيع أن يتكلم باسمى . . .

— ذلك الشاعر الأغريقى الذى قلت لى عنه .. ما اسمه ؟

— « أنا كريون » .

— نعم ، نعم ، أين هو ؟

فأشار بأصبعه إلى الكتاب الذى تعبث به :

— إنه بين يديك .

فضحكت ضحكة ساخرة ورفعت الكتاب تنظر فيه .

وبادر محسن فدلّها على إحدى صفحاته وقال لها :

— إقرئى هذا !

فقرأت :

« إنى أريد ،
أريد أن أحب ،
ولقد زين لى « الحب » أن
أحب . .
فأبيت من جهلى أن أصغى
إليه . .
فقبض من فوره على قوس
من ذهب ،
ودعانى إلى القتال .
فلبست له الحديد ،
وأمسكت بالرمح والدرع ،
ونهضت كأنى « أشيل »

أنازل « الحب » .

فسدد إلى سهاماً ،

حدت عنها فطاشت .

ونفدت سهامه ،

فتقدم إلىّ بتقد غضباً ،

وهجم على فاخترق جسمى ونفذ

إلى قلبى .

فانهزمت .

يالها من حماقة أن أتقى

بدروع !

أى سلاح خارجى ينتصر

على « الحب » إذا كانت المعركة

قائمة داخل نفسى ! »

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى جامداً على السطور ، وكان الفتى قد دنا منها يقرأ معها من صفحة

واحدة . فأحس شعرها المعطر قد انتثرت خصلاته الذهبية على وجهه كما تنتثر أشعة القمر على الكائنات ، ولم يذكر الفتى شيئاً عندئذ ولم يفطن إلا إلى وجه سوزى الناعم الحار قد لاصق وجهه ، وكأنها تقبله ، نعم ، إنها بين ذراعيه تقبله ، هذا لا ريب فيه الآن ، وهى حقيقة واقعة الآن لا وهم فيها ولا غموض ، ولم يدر الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك . . .

* * *

آه لأولئك الخياليين عندما يعطون فجأة : « الحقيقة » ! نعم ، فجأة . أى قبل أن يترك لهم زمن يسبغون فيه على تلك « الحقيقة » أردية الخيال الموشاة ! إنهم يتلقون جسما غريباً ومادة عارية لا يعرفون ماذا يراد بها . إن « الحقيقة » عملة لا تجوز فى مملكة « الأحلام » .

لم ينم محسن تلك الليلة . فقد كان وقع ما حدث ذا دوى فى نفسه . وجاء الصباح فأسرع إلى صديقه أندريه يقص عليه كل شىء .

وابتسم الفرنسى لرواية الفتى وقال له :

ــ أرأيت أنها فتاة ككل الفتيات ، وعاملة كآلاف العاملات ! تلك التى أسكنتها قصراً من قصور ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من علیائها إلى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها . آه أيها الصديق ، اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً مما كنت تتصور وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة لاتحتاج إلى كل هـــذا الوقت ولا إلى كل هذه الخيالات والتأملات !

فأحس الفتى إحساساً من يهوى إلى الأرض ، وكأن قيم الأشياء فى نظرة قد تضاءلت ، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها ، فبدت كتمثال مصبوب من السخف . وشعر محسن بفراغ فى مادة نفسه ، لايدرى بعد اليوم بماذا يملؤه . . .

وترك الفتى صاحبه وانصرف مطرقاً ، دون أن ينبس بحرف . . .

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها . ولقد هبط (آدم) الأرض فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر ومادة أخرى وهكذا كان يستيقظ محسن بعدئذ كل صباح على قبلات ملتهبة ، فيفتح عينيه ، فاذا موجة من ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه ... وصوت عذب يقول له :

— أورفوار !

ثم خطى قدمين صغيرتين تخطر على خشب الحجرة وتتجه إلى الباب فى شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب يفتح ويغلق . ثم لاشىء . انها ذاهبة إلى عملها ...

لم يكن لمحسن بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار فى النوم إلى الضحى ، فلم يعد به حاجة إلى التبكير ، ولم يعد صوت غنائها هو الذى يوقظه . إلى أن يكل من النوم فينهض فى تراخ ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج إلى مطعم (الأوديون)

بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغداء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شباك التذاكر فى منتصف الثالثة ، فيتركها ليعود إليها ساعة العشاء فى ذلك المطعم ، ثم يذهبان وقد فرغت من عملها إلى سينما الحى . فيجلسان متلاصقين، يتبادلان القبلات فى الظلام ، كما يفعل من بجوارهم من عمال وعاملات . وتذكر محسن ذات مرة ملاحظته الأولى يوم رأى فتى فرنسياً يعانق فتاة فى الطريق ، لقد حسب يومئذ أن فى ذلك امتهاناً لقداسة الحب . أتراه يقول ذلك الساعة ؟ لا . ما الذى تغير ؟ لا شىء . إنه يحب دائماً ، ولكن طعم (الحب) هو الذى تغير . التفاحة هى التفاحة ، ولكنها تفاحة أرض جـــديدة ! تفاحة (الأرض) ... حلوة لكن داخلها الدود ! ولم يكن محسن يطيق إبطاء سوزى خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها وهى تحنى رأسها بالتحية ، ولم يعد يرى صورتها فى أحلامه ممتزجة بأنغام (الأنترمتزو) و (رقصة الفراندول) ، ولكنه يراها فى نومه تعانق رئيسها (هنرى)

الذى عرف منها بعض أخباره ، أو يراها تقبل شاباً زنجيا تلك القبلات الملتهبة ، فينهض منزعجاً مضطرباً يود لو يمزق جسدها بأسنانه .

* * *

وجلس محسن ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم الذى يؤمه ممثلوا الأوديون وفنانوه ، ومضت ساعة مجيئها ولم تظهر بالباب ، فاختفى الابتسام من وجه الفتى وذهبت رغبته فى الطعام ، وود لو ينهض ويخرج ويركض هارباً حتى تأتى ولا تجده ، وخامرته الشكوك . ولم يستطع أن يقبل فى أمرها عذراً . وحكم عليها فى نفسه حكما قاسياً ، وتمنى لو يحطم شيئاً . حقيبة يدها ، أو طبقاً من هذه الأطباق . ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة وبدت سوزى مسرعة إليه ، وكأنها قرأت فى وجهه كل مافى نفسه فبادرت تقول :

ـــ أبطأت عليك قليلا ، أردت أن أحصل على تذكرة دعوة للحفلة الأولى من الرواية الجديدة . . . لأقدمها إليك !.

وأخرجت من حقيبة يدها رقعة من الكرتون أعطتها إياه ، فأخذها . . . ولكن الهدوء لم يستقر فى نفسه . فقال لها فى صوت حار :

— انى أحبك إلى حد مخيف . . . إلى حد الرغبة فى أن أنهال عليك ضربا .

فقالت مبتسمة وهى تفحص قائمة الطعام بعينيها :

— هذا مخيف حقاً . ماذا طلبت من الأكل ؟

— انى أحبك ، أحبك كثيراً .

قالها كالمخاطب نفسه وهو يفحص بعينيه خصلات شعرها المتهدل تحت القبعة ، وجاء خادم المحل يتلقى الأمر . فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان . والتفتت إلى الفتى الساهم . كما التفتت إلى الخادم ، وصاحت به :

— عجباً ! ماذا تريد أن تأكل ؟

فرفع الفتى بصره كمن ثاب إلى رشده وتناول بطاقة الطعام وهو يقول :

— ماذا آكل ؟ لست أدرى ؟ أشيرى على أنت فانى لا أستطيع أن أعصى لك أمراً !

فطلبت له مثل ماطلبت لنفسها . وانصرف الخادم . والتفتت هى اليه :

— ماذا بك ؟

— لاشىء . ما أشد الحرارة داخل هذا المكان ! انى أحس العطش . . .

وسكب قليلا من الماء فى كوبه ، وجرع منه جرعتين ، وقالت سوزى وهى تبحث عن كوبها الذى لم يوضع بعد على المائدة :

— إنى أيضاً أحس العطش . . .

وتناولت كوب محسن وشربت من الموضع الذى شرب منه الفتى ، وهى تنظر إليه باسمة . ورأى الفتى ذلك منها . فقال فى صوت خافت نارى متقطع كأنه حمم متطاير :

— بى . . رغبة هائلة . . فى أن . . أقبلك الآن !

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل . ونظر محسن خلسة إلى من حوله فى المحل . ثم مضى يقول :

— لاأستطيع ، فلأقنع الآن مرغماً بالشرب من الموضع الذى مس شفتيك . . . كما فعلت معى .

ورفع الكوب إلى شفتيه . . .

الفصل الرابع عشر

عاش محسن حياة « الواقع » ، يأكل ويشرب وينام فى « الحقيقة » . ولم يفطن إلى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة . ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبابيس شعر للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها الخمرى النحاسى فى لون الأجسام الرخامية التى عانقتها الشمس على شاطىء البحر . ذلك اللون المحبوب من الباريسيات فى ذلك الوقت . نعم ، لم يعد البياض الناصع لون السحب هو المثل الأعلى ! إنما هى الحمرة الحارة لون الصلصال المحترق !

وتلاقى محسن وسوزى على مائدة المطعم هذا المساء مبكرين ، فالليلة الحفلة الأولى للرواية الجديدة ، وقد جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير « دى فيرودى » .

وكان الفتى باسم الثغر ، منشرح الصدر ، يلتهم طبق « البفتيك » فى نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا وابتسمت قائلة :

ـــ أرى أن لك اليوم شهية للطعام !

ـــ إن « البفتيك » لذيذ . ولكنى مع ذلك . . . مسرور لسبب آخر .

ـــ ما هو ؟

ـــ إنى مدعو إلى الحفلة الأولى فى ثانى مسرح بباريس ! إنها المرة الأولى التى يقع لى فيها ذلك . . . وهذا بفضلك . . إنى فخور بك !

ـــ هذا شىء لايدعو إلى الفخر ! . .

ـــ لا . . إنك . .

ـــ لا تقل شيئاً . . . كل بغير أن تتكلم ، يابيغائى الكبير . !

ـــ آه ! بيغاؤك الكبير ، كم أغبط ذلك الآخر الصغير ! إنه فى قفصه فوق نافذتك أكثر حرية منى بين يديك !

ـــ قلت لك لاتتكلم حتى تفرغ من طبقك . إنى أعلم أن لاشىء يذهب شهيتك دائماً مثل الكلام على المائدة ! استمع أنت ، وأنا أتكلم . . .

ـــ نعم ، تكلمى أنت ...

وعكف محسن على طعامه ، وأرادت سوزى أن تفتح فمها بالحديث ولكن الباب فتح ، وظهر شيخان جليلان ابتسما للفتاة فى تحية من رأسيهما ، وجلسا إلى إحدى الموائد ، وقد هرع إليهما مدير المحل وغلمانه ، ورأت الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى فأسرعت تقول له هامسة :

ـــ أتدرى من هذا الشيخ القصير ؟

ـــ من هو ؟

ـــ مسيو « دى فيرودى » نفسه .

فرفع محسن رأسه ينظر إليه فى عجب وإعجاب ثم قال هامساً :

ـــ هذا « دى فيرودى » !

ـــ إنه مثال الوداعة وطيب الخلق .

ـــ ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟

ـــ عجباً ، ألم تره من قبل ؟ هذا مسيو « سيلفان » !

— « سيلفان » العظيم !

ونظرت سوزى إلى طبق محسن ، ثم قالت فى الحال بلهجة الآمر :

— والآن ، الكلام ممنوع يابيغائى العزيز !

— نعم .. تكلمى أنت ...

وعاد الفتى إلى الأكل ، وجعلت سوزى تتحدث !

— أتعرف أن زوجة مسيو « سيلفان » تجيد طهى « البوبابيس » ؟ وأن مسيو « هريو » وزير المعارف وهو الصديق الحميم للممثل « سيلفان » لايستمرىء أكل (البوبابيس) إلا من صنع (مدام) سيلفان العجوز ! اسمع هذا : فى الشهر الماضى ...

ولم تتم . فقدفتح الباب، وظهر شاب فرنسى جميل الطلعة ، ماكاد يقع بصره على سوزى إلى جانب محسن حتى تغير وجهه ، وما كادت تراه الفتاة على هذه الحال حتى تغير وجهها وانقلب كل شىء فيها رأساً على عقب ، وشعر محسن فى تلك اللحظة

أن مصيبة نزلت به ، لا يدرى بعد ماهى . وجلس ذلك الشاب إلى خوان قريب ، ووجهه فى وجه الفتاة . . . لكنه أطرق وجعل كأنه لا ينظر إليها ، ووضع عينيه فى (قائمة) الطعام ...

وأطرقت سوزى كذلك . وكانت قد فرغت من الأكل فلم تدر ماذا تصنع . وقلق محسن فسألها :

— ماذا دهاك ؟

فلم تجبه ، ولم تلتفت إليه . وأومأت إلى غلام المطعم فاقترب منها فقالت له :

— مجلة (الألستراسيون) من فضلك !

فأسرع الخادم وأحضر إليها الصحيفة المصـــورة التى طلبتها . فتناولتها ونشرتها بين يديها وجعلت تتأمل صورها فى صمت . كأنها غير حافلة بوجود محسن إلى جوارها . وأحس الفتى منها ذلك . فغلى الدم فى رأسه وقال لها بصوت هامس يقطر مرارة :

— أهذا هو صاحبك (هنرى) ؟

فلم تجب . فمضى يقول :

— لماذا تسكتين الآن عن الحديث معى ؟

فلم تجب . فقال :

— أريد أن أعرف معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة وهذه الصورة ؟ !

فلم تجب . فقال :

— تريدين أن تفهميه فى بساطة أنى إنسان لا خطر له عندك ، وأنك تتناولين معى العشاء عن غير رغبة أو سرور .

فلم تجب . فقال ذاهب الصبر :

— وبعد ؟ ألا تقولين كلمة ! لقد قضى الأمر إذن ولم أعد بغائك العزيز ؟ وأنت ما عدت تحرصين على شهيتى للطعام أو الشراب ، والاقبال علىّ تحدثينى كما كنت الآن تفعلين ؟

فلم تجب ، ولم ترفع رأسها ومضت تقلب الصور فقال فى غضب مكتوم ساخر :

— ثق ان خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع انك تفضلين

قتل الوقت بمطالعة المجلة على الحديث مع مثلى . نعم ، لقدفهم الآن أنى لا أساوى شيئاً فى نظرك !

فلم تقل شيئاً . فقال :

ـــ لعلك تريدين أن يفهم أكثر من ذلك، فيرى أنى لست أكثر من معجب مفتون من أولئك المغفلين الأجانب الذين ينفقون على الغانيات ويتقبلون فى رضا إعراضهن وإهمالهن وازدراءهن !

فلم تجب ولم تتحرك ، فقال :

ـــ إنك تحمليننى من الاذلال ما لا أطيق ! نعم ، ينبغى أن أقول لك إن ما تصنعين بى الآن لكثير ، وليس الذى يعنينى من الأمر هذا الحب الهائل الذى ظهر فجأة الساعة فسحرك ، وجعل منك تمثالا من الشمع . فأنت حرة فى شئون عواطفك . ولا يدفعنى إلى هذا الكلام ألم أو غيرة ، حقيقة أن حالى الآن لايدعو إلى الاغتباط والارتياح ، ولكنى أنا أيضاً حر فى شئون عواطفى . ما أسألك عنه الساعة هو

أن تفكرى قليلا فى أمر موقفى ، وأن تنقذى على الأقل المظاهر، وأن تعامليني فى شيء من البر والكرم، وأن لا تجعليني ذليلا أمام حبيبك أو خليلك . إلا إذا كنت تقصدين ذلك، وكان هذا هو السبيل الذى ترتفعين به فى نظره وتصلين به إلى عنايته وحسن التفاته . وبعد؟ ألا تقولين شيئاً ؟ أمصرة أنت على هذا الصمت المهين ؟ إذن . . ليس فى وسعى الآن مع الأسف العميق إلا أن . . .

وأومأ إلى الخادم فجاء ، ودفع إليه سريعاً قيمة « الحساب » كله ، ثم نهض قائلا :

ـــ وداعا . . يا سيدتى !

ومضى على عجل دون أن ينظر إليها ، وخرج من المطعم خروج آدم من الجنة . .

الفصل الخامس عشر

قبع محسن فى حجرته ، مهيض النفس ، جريح القلب وجعل ينظر إلى كل شىء حوله كمن ينظر إلى شىء غريب . نعم، لقد فقد هذا المسكن معناه . وهذه النافذة . ماعادت تشرف الآن على ذلك الهناء . . . وإن صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى ليس الآن غير طعنة طويلة تنفذ إلى سويداء فؤاده . فهى إنما تغنى دائماً للآخر . إنه مازال يسمع فى الصباح عين الأغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى
لايعرف أبداً قانوناً »

هذا صحيح . وهو الآن يلقى جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمى ! إنه لم يعد يسمع حتى صوت ندائها للبيغاء الصغير. إن إسم « محسن » قد اختفى من فمها ، على الإطلاق ، وخطر للفتى أن ينظر إلى قفص البيغاء فوق نافذتها . فأطل من

نافذته فأخذه الروع . لم يجد قفصاً ولا ببغاء ، أين العصفور؟ أين « محسن » الآخر؟ لا يدرى مصيره هو أيضاً ، لعلها قذفت به كذلك إلى عرض الطريق ، وحزن الفتى لتلك الفكرة . .

ومرت ساعات ، ومرت أيام ، ومحسن يعيش فى ألمه ، كما يعيش الجريح فى دمه . وخطرت له خواطر وطافت به هواجس . وانتهى من تأملاته الطويلة إلى عزم : أن يراها ويحادثها مرة أخيرة . آه للمحبين المدحورين ! كم يعلقون الآمال على ما يسمونه « المحادثة الأخيرة » ! إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الشرح والمنطق والتفسير والإيضاح وكل وسائل الفكر والعقل أشياء لا تفيد فى مسائل القلب . وأن النعيم والجحيم إنما تفتح أبوابهما وتوصد على شبه ألفاظ سحرية لا معنى لها :

« افتح ياسمسم ، اغلق ياسمسم » !

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها . وعلم أنها فى حجرتها ، فتجلد وذهب الى بابها وطرق طرقة خفيفة خجلة . ففتحت . وما ان رأته حتى عادت فأغلقت فى وجهه الباب

فى هدوء، بغير أن تلفظ كلمة . .

فرجع الفتى أدراجه أحمر الوجه من أثر تلك الصفعة . وجلس إلى مكتبه وأخفى رأسه بين كفيه . .

ومرت عليه ساعات أخرى . وفكر مرة أخرى : لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويفهمها . .

وحاول فى اليوم التالى أن يعيد الكرة . فطرق بابها مرة ومرة ؟ فلم تفتح له . وتوسل إليها أخيراً من خلف الباب ان تصغى إليه خمس دقائق . يخرج بعدها ولا يعود . بل إنه يعدها بترك المنزل كله والمضى بأمتعته الى حيث لا تعلم ، لكنه لم يتلق جواباً . فهى سماء صماء لا يصل اليها دعاء . وهو عبد طريح على ارض الشقاء قد ارتكب خطيئة لا غفران لها ولا يدرى ماهى ؟!

وحدثته نفسه احياناً بالثورة . وود لو تنقلب كل ذرة من ذرات حبه الى قنابل تتساقط محطمة ذلك الشىء الجميل الذى كان يسميه « سوزى » ولكن رباعية من رباعيات

الخيام وقعت فجأة تحت بصره وهو يقلب الكتاب بين يديه لاهياً حالماً :

« إذا أردت أن تسلك
طريق السلام الدائم
فابتسم للقدر إذا بطش بك
ولا تبطش بأحد ! »

نعم ، فليبسم ، على الرغم من كل شيء . حسبه أن قد ظفر بلحظة من ذلك النعيم الذى كان يجهله . نعم ، ان تلك المرأة استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة المجهولة فى كيانه . . . فليكن من أمرها مايكون ، فهو الآن يعلم بفضلها مالم يعلم . . . « جنة الأرض » هى التى أعطته مفاتيحها ، وأذاقته رحيقها ، ووضعت شفتيها إلى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البلورى من الكوثر الأرضى . . .

لكنها قد طردته ؟ فما مصيره ؟ أيعود إلى السماء !؟

وترك مجلسه ، واقترب من نافذته ، وأطل منها على

نافذتها السفلى فوجدها موصدة ، ولكن الضوء ظاهر من زجاجها ، فهى فى حجرتها ذلك المساء . لكن كيف السبيل إليها ؟ إن بابها المغلق فى وجهه لاتخترقه صلاة ولا يفتحه بخور . إنها الآن فى حجرتها كاله فى سمائه ، قداحتجب بالسحب واعتصم بالشهب ، فلا يدرى أحد كيف يدنو منه . وتأمل محسن السماء طويلا من نافذة حجرته العالية وقال منتهداً :

« آه أيتها السماء السابعة ،
إنى أراك وأحادثك ،
من هذا الطابق الخامس ،
أمافاتنى التى كانت دانية منى ،
فهى نائية ، نائية الآن عنى ،
آه ، . . . لوأنها كانت فقط
فى السماء السابعة ؟
لكنها . . . فى الطابق الرابع !! »

الفصل السادس عشر

سيدتى . . .

لم يكن بد من أن أكتب إليك هذا الخطاب . إطمئنى . لن أطلب فيه شيئا . ولن أرجو منه شيئا .. إنى لست أخدع نفسى ، ولست أجهل حقيقة الأمر . إنى منذ دخل المطعم مسيو « هنرى » ولحظت كيف تغير وجهك ، فهمت فى الحال أن ساعاتى عندك أمست معدودة . ولعل كلماتى التى وجهتها إليك ذلك المساء لم تكن إلا صيحات التشبث بالحياة . فان كنت قد جرت فى القول ، وانطلقت بكلام أغضبك ، فانى أطمع دائماً فى أنك تصفحين كما صفحت ولا ريب الملكة الجميلة « سميراميس » عن زلات لسان « أسيرها » يوم دعته إلى ليلة من ليالى النعيم ، مهدت فيها الفرش وأقيمت الموائد ، وقدمت (أطباق البفتيك) . وتلاقت الشفاه على الأكواب ،

وفاح عطر الـ « هو بيجان » من أعطاف الثياب ، وانثرت خصلات الذهب على الوجوه إلى أن لاح الصباح ، فتغير وجه الملكة الجميل . ووضع الأسير فى الأغلال ، ومشى به إلى الموت . وهو ذاهل مازالت فى رأسه بقية من نشوة الليل .

إن الذى كان يلطف من غير شك وقع الأمر على ذلك الأسير انه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلاد سيستقبله على باب مخدعها فى الصباح . فهو لم يغتر . ولم يغب عن عينه السكرى سيف المنية يبرق من خلف الكؤوس .

ولكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير ذلك كل شىء عندهن مستتر مقنع ، (فهى) تضع على وجهها ذلك القناع الحريرى الأسود الذى يلبس فى (المساخر) ، وتجر خفلها (أسيرها) وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزتين ، تزهران فى السواد كأنهما نجمان بازغان فى صدر الليل ! وتسير به إلى خلوة يقرآن فيها صفحات الحب منفردين ، ويلتصق فيها الوجه الحار على الوجه المورد ، ثم تجذبه إلى ضجيج الناس والطرقات . وقد خيل إليه فى هذا الحلم أنهما فى (فينسيا)

أيام (الكرنفال) وكأن كل شيء حولهما راقص ، وكأن على رأسيهما تلك التيجان من (الكرتون) الفضى الذهبى . . وكأن حبال الورق (السربنتان) الخضراء الحمراء تشد جسميهما ، أحدهما إلى الآخر فى رباط ، خيل الى الأسير وهو غارق فى أحلامه أنه وثيق لن ينقطع ، ولبثا هكذا مرتبطين بتلك (الحبال) يذهبان بهافى كل مكان : فى المطاعم حيث (البورجونى) المعتق ، وفى السينما حيث القبلات فى الظلام ! عجباً ! أكل هذا لم يكن حباً ؟! من قال ذلك ؟ ومن أذن للأسير فى أن يشك؟ حقيقة أنه لم ير كل ماخفى من وجه (الجميلة) فهى لم تخلع بعد قناعها . لكن ماذا يهم ؟ انه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين !

وجاء الصباح . وطلعت الشمس . وغارت النجوم وأفاق ذلك الحالم ، فلم يجد حوله أحداً ، غير كناسى الطرق يكنسون بقايا الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة ، وأكوام « حبال » الورق ذى الألوان ؟ التى كان يحسبها قديرة على أن

تربط الأجسام طول الأعوام ، أين ذهبت « الملكة » ؟ لايدرى ! كل مابقى منها هوقناعها الحريرى الأسود ملقى تحت أقدام المائدة .

آه ياسيدتى ، لماذا فعلت ذلك؟ ولماذا لم تخبرينى «بشروط» اللعب من أول الأمر . لو أنى عرفت هذا الوضع للأشياء ، لهان كل هذا . ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شىء على سبيل الجد .

ان من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة أن تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وانها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة !

لقد كنت أنت من غير شك تعلمين أن هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا . ويوم كنت أعتقد أنا أنى انما أحيا فى جنة الأرض الجميلة ، كنت تعرفين انى انما أحيا فى مهزلة مبتذلة سخيفة .

لقد هبطت الأرض صافى النفس نقى القلب ، كما هبطها

ذلك الاله الهندى « ماهادوفا » الذى تروى خبره الأساطير الهندية : لقد نزل إلى الأرض كرجل من الرجال ، يرقب أعمال البشر بين البشر . فقابل فتاة جميلة حياها فحيته ، وسألها عن أمرها ، فقالت انها راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت « صفاقاتها » بين أصابعها ورقصت له ألف رقصة ورقصة . ثم ركعت أمامه وقدمت له أزهاراً ، وقادته إلى مسكنها . وهناك جعلت تغنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن قلب نادر نبيل على الرغم مما يحيط به من أدران . وعاشا فى سعادة الأرض ، الزمن الذى تسمح به سعادة الأرض ، وفى ذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتاً . فبكته بكاء مراً . وجاء الناس والكهنة وأحرقوه كما يفعل الهنود بموتاهم ، فأسرعت الفتاة وألقت بنفسها إلى جانبه فى اللهب ، فأصعدها معه إلى السماء !

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوروبية اليوم فانها تفعل غير ذلك . انها أعقل من أن تلقى نفسها فى اللهب من أجل

الذى تحب . أمامن لاتحب ، فهى تعرف كيف تجعله هو اللهب وهو الحطب الذى يلقى فى المدفأة ، كى ينشر الحرارة فى مسكنها المغطى بالجليد . خيل الىّ ياسيدتى حقيقة أن ريحا باردة قد هبت على ماكان بينك وبين مسيو «هنرى» فى يوم من الأيام . وكان ينبغى أن أدرك أن قلبك يومئذ كان فى حاجة إلى الدفء ، وكان ينبغى أن أعلم أن المكان المعد لى انما هو « الموقد » ؟ وان هذا الوقود «الحى» ينبغى ان يبقى حتى يحترق بأكمله ، ويصبح رماداً ، وتنتهى مهمته فتكنس ذراته وتطرح فى الهواء !

لست أحب ياسيدتى ان اتهمك « بالأنانية » ، ولكن عتبى عليك لايعدو أمراً واحداً صغيراً : كان يحسن بك أن تخبرينى بمهمتى حتى أحترق على علم . وافيد الغير عن رضا . ولكنك شئت ان تسخرى بى من تحت (قناعك) حتى تكون لك المتعتان .

لاتحسبى أنى حانق عليك . على النقيض . إن من حقك أن تصنعى الذى صنعت ، فالحياة عندك متاع . وإنى أحب لك

السرور من أعماق قلبى ، وإنى لست نادماً على ذلك القلب الذى قدمته إليك فى احترام ، فألقيت به فى المدفأة . إنه لك على كل حال . إنه كان لك تفعلين به ماتشائين . وقد فعلت به ماشئت . إنما الذى يؤلمنى الآن : هو حياتى بعد ذلك . لقد أسرفت فى الخيال . فجعلت منك كل جنتى ، وعشت هذا الخيال ، وليس من الهين على أن أعيش من فورى فى شىء آخر . انى مثل ذلك الملحد) الذى طرد حديثاً من حظيرة (الإيمان) فتشرد بعد ذلك (بقلبه) لايدرى أين يسكنه ... مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ، إذا طلع النهار انساق إلى ترهات العقل ، حتى يجن الليل ، فيأوى (بقلبه) إلى حيطان (العقيدة) ينطرح فوق الأفاريز .

شأنى الآن هكذا . اعلم انك الآن شىء بعيد عنى بعد النجوم ، ومع ذلك مازلت أعيش معك ...

منذ تلك الليلة الحاسمة فى المطعم إلى اليوم ، وأنا لا أنام قبل أن أسمع صوت المصعد يقف على (طابقك الرابع)

واصغى الى صوت قدميك الصغيرتين تخطران فى ذلك الممر الطويل إلى أن يفتح بابك ويغلق فأعلم أنك قد عدت، فأسرع إلى نافذتى أنظر إلى الضوء المنبعث من زجاج حجرتك، وأظل على تلك الحال ساهراً حتى تطفأ أنوارك وتنامين، وعندئذ تنام عينى، كأنما أنت التى تأذنين لها فى النوم. لاتحسبى ما أقول مبالغة منى. لا. إن كثرة الترقب واعتياد التربص، قد أكسبا أذنى مراناً غريبـــاً، على سماع أصوات المصعد والخطوات والأبواب، مهما دقت ومهما اختلطت. إنى بأذنى أستطيع الآن أن أميز وقع خطواتك من بين مئات. إنى لم أر وجهك منذ تلك الليلة لأنى لم أجرؤ على النظر إليك. ولكنى أقنع بعالم الأصوات التى تصدر عنك وتصلنى بحياتك اليومية؛ العجيب فى الأمر أنى أعلم أن كل هذا حمق غير مجد. ومع ذلك أفعله. وأعجب منه أنى أحصى عليك خفية كل حركاتك، فأعلم أنك تلك الليلة سهرت أكثر مما ينبغى. لست أدرى أين؟ والليلة التالية عدت مبكرة، لست أدرى لماذا؟

معذرة ، هذا السلوك المعيب منى ، إنما أنا رجل شريد طرد من قصر « الحب » السحرى ، فهو يلجأ فى يأسه إذا جن الليل إلى الحيطان والأفاريز ! ولقد فكرت بالفعل فى ترك هذا النزل . والانصراف إلى شأنى ، وربما فعلت ذلك فى يوم قريب . لكنى حتى الآن لم اقو على ذلك .

إنى أفهم الآن موقف آدم عقب اخراجه من جنة السماء . انى أتخيله قد لبث بغير حراك فى الموضع الذى هبط فيه ، ومرت به ليالى وأيام وهو ينظر الى السماء ، يرقب كل حركة فيها . إذا رعدت فهى صوت أبوابها تفتح لتناديه من جديد ، واذا لمع البرق فهى ابتسامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة ، وإذا تساقطت الشهب فهى همسات غضب مازال قائما ، وإذا استدار البدر فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم ، وكر الزمن وآدم يتمرغ فى مكانه بين اليأس والرجاء عند ذلك المهبط من الأرض يمسح وجهه بأعتاب النعيم . الى أن انتزعته غريزة « الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وارغمته على

النهوض ، فقام يدب فى الأرض ويعيش كما تعيش الأحياء من المخلوقات .

إنى لست أعرف كم لبث آدم فى الجنة من زمن ، وإنى لا أتوق إلى معرفة ذلك . ولكن الذى أعرفه على التحقيق : ان جنتى أنا دامت أسبوعين ، حسبتهما حسابا دقيقاً ، بالساعة والدقيقة . منذ الليلة التى ذهبنا فيها معاً إلى مطعم « بوكاردى » الى الليلة التى خرجت فيها وحدى من مطعم « الأوديون » اسبوعان من النعيم ، هما كل زادى ، وكل كنزى .

وبعد ... فانى قد اطلت عليك كثيراً . وليس من حقى ان اسلبك كل هذا الوقت لتطالعى حماقاتى . وليس من حقى كذلك ان انتظر منك رداً على هذا الخطاب الطويل . فحسبى منك برا وكرما ان تقرئيه فى ساعة فراغ ، انه على أى حال نوع من اللهو ، وهو على كل حال صائر الى « المدفأة » !.. وإن كنت أرى ان « الشتاء » قد انقضى فقد ظهرت عندك بشائر الربيع . امس رأيت على نافذتك آنية يبسم فيها زهر

« الكرز » فى أغصانه الرفيعة الأرجوانية . فذكرت اغنية (سان سانس) :

الربيـــع جاء
يحمـــل الرجاء
إلى قلوب العشاق

ما أكذب هذا الشعر ! هذا الربيع ، على غير أمل الناس فيه انما هو الذى جاء ينتزع الرجاء . . . ومع ذلك فانى استقبل بوجهى نسماته العاطرة ، ولا أرجو منه شيئاً كما يفعل الآخرون . انى أخشاه كما خشيه (حافظ الشيرازى) :

حبى نســـيم الربيـــع
قادنى الى الصـــحراء
لقد حمل الى النسيم عطره
لكنه أخذ منى راحتى
إلـهى ! لا تحمل هذا الجمال
الذى لا قلب له

وقر أشجان الهائمين بحبه !
لقد جثوت فى الطريق الذى
عفرته أقدامها
لكنها لم تدن منى
لقدار تفعت توسلاتى و تنهداتى
فأزعجت نوم الطيور والأزهار
لكنها لم تفتح عينيها
بالأمس مس الكوب شفتيها
وقال : انه يعطى الحياة !
فقلت: لا بل هى التى اعارته الحياة
ومع ذلك ، لو انى أمامها
مت محترقاً
لما اطفأت لهبى بأنفاس شفتيها

ما أصدق هذا الشعر! كل كلمة فيه كأنها عاشت حياة آدمية!

أخيراً استأذنك فى طرح القلم ، فان الفجر قد بدا من

من النافذة ، وأخشى ان تغضبي لمجرد انى اختلست طيفك ليلة ؛..
ارجو مرة اخرى ان تغفرى لى هذه الثرثرة . فأنا لست خيراً من « محسن » الآخر فى شىء . أعنى « الببغاء الصغير » ! انى لم أعد أرى قفصه فى نافذتك . فلعله حى يرزق . انى أيضاً حى ارزق . لقد تحققت امنيتى ، وتساوينا فى عين الحظ والنصيب « الببغاء الكبير » و « والببغاء الصغير » . ألا تذكرين ؟ ان كل مايحزننى من امر « محسن » الصغير انه هو ايضا ، وقد أصبح بعيداً عنك ، لايستطيع هو أيضا أن يحييك كل صباح بذلك الصفير المعتاد مردداً :

« أحبك . أحبك . أحبك »

« محسن . . . »

الفصل السابع عشر

صديقي . . .

على الرغم من خطابك الذى وجهت إلى فيه كثيراً من اللوم ، فانى مازلت أدعوك « صديقي » . أو لسنا صديقين ، مادمنا نشكو من عين الداء ؟ إنى لم استطع اليوم منع نفسى من الرد عليك . بل لقد هممت فعلا بزيارتك هذا الصباح . غير أن خطابك وما فيه من صواب ، وما جاء به من عتاب ، قد أشعرنى بقبح موقفى طول الأسبوعين « المعروفين » . ولقد عدت إلى حجرتى بعد تلاوة كلماتك وأنا حقيقة متألمة . ولقد وددت لو انى لم أعش قط هذين الأسبوعين . إنى خجلة . ولا أستطيع أن أقابلك وجهاً لوجه . كيف السبيل إلى محو كل هذا من ذاكرتك وذاكرتى ؟

نعم ، لست أنكر ، إنى كامرأة تحب بكل جوارحها ، قد كنت حقاً « أنانية » . إنى فكرت بالفعل ذات يوم فى أمر

تصرفاتى ، وتنبهت إلى ما فيها من ضرر وشر ، ولكنى مع ذلك أقدمت على هذا الشر، آملة انك لن تعجز عن الانفصال عنى . . . نعم ، أرجو أن تثق كل الثقة انى عندما فكرت فى كل هذا لم يخطر لى قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل هذا اليأس .

صدقنى إنى محزونة حقاً لهذه النتيجة . وإنى من أعماق قلبى أبدى لك شديد أسفى .

لكن . . . ماعساى استطيع ان افعل لأنال الصفح ؟

إن آلامك تترك فى نفسى ألماً عميقاً . وأرجو منك أن تثق بذلك .

وبعد أتقبل منى ان أمد يدى واصافحك ..؟

سوزى ديبون

حاشية — سألتنى عن « الببغاء » الصغير ، وقلت إنك

لم تعد ترى قفصه فى نافذتى ، هذا صحيح ، إنه ليس عندى الآن ، فان أمر طعامه وشرابه والالتفات إليه لما يحتاج إلى وقت لا أستطيع أن أكرسه له ، فسمحت لنفسى ان اهديه الى « كلوتيلد » حارسة المقاصير، وقد اوصيتها أن تعنى به كل العناية ، فكن مطمئناً ؟

« س . . . »

الفصل الثامن عشر

ترك محسن مسكنه فى نزل « زهرة الأكاسيا » واستأجر حجرة فى النزل الذى يقطنه صديقه إيفانوفتش وكان الروسى قد اشتدت عليه وطأة المرض . فلم يشأ الفتى إزعاجه بكثرة الكلام ، فلزم هو أيضاً حجرته ، لايخرج منها إلا فى الصباح ، يقطع شوارع الحى صامتاً ثم يعطف على باعة المأكولات يوم السوق ، فيشترى « كيلو جراماً » من الأرز وموزة واحدة ، يعود بهما إلى حجرته حيث يهيىء غداءه بيده . ذلك شأنه اكثر الأيام . فقد نضبت موارده من طول الانفاق فى المطاعم الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لايستطيع حتى تناول الأكل فى مطعم الحى الحقير ، إنه الآن يدفع ثمن الأسبوعين الذين قال إنهما « كل زاده وكل كنزه » واللذين قالت « هى » : إنهما شىء تتمنى لو يمحى من ذاكرتها ، وتود انها لم تعشهما » !

ووقف الفتى امام النار فى احد اركان حجرته ، يرقب فوران الماء فى آنية الأرز (الألومنيوم) ، وهو صامت مفكر شأنه فى كل يوم من تلك الايام التى مضت كأنها اعوام ، يتبخر الماء فيصب غيره فى الأناء . ويتبخر فيصب غيره . والأرز لاينضج ، فيأكله آخر الأمر شبه حصى . ما من مرة نضج معه هذا الأرز . وما من مرة خطر له ان يسأل احداً فى طريقة طهيه ، او يغير هذا اللون من الطعام . لماذا يفعل ذلك؟ ليس للأكل الآن مذاق فى فمه . وإن (الكيلو) من هذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة ايام .

وكان لحجرة محسن الجديدة نافذة لم يفتحها قط منذ مجيئه ولم يدر على اى شىء تشرف . لايريد ان يعرف ... إن نافذة قلبه قد اغلقت . وما من شىء يسترعى التفاته الآن ، غير اسعار (الأرز) مدونة على البطاقات فى الحوانيت ، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر إليها معروضة فى المكاتب دون ان يمسها . وكانا احياناً يلمح فوق غلاف بعض الكتب فقرة

أوعبارة أوبيتاً من الشعروضع على سبيل الاستشهاد ،فيجعل منه (نغمة) يظل فكره يرتب عليها (تقاسيم) طول النهار. وكان يجد فى هذا شيئاً من السلوى . غير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب جعل فى رأسه هذا القول لشاعر يابانى :

إنما يبنى الشاعر سعادته على الرمال

ويسطر اشعاره فوق ماء الجدول

الجـــارى

نعم . هنا كل البلاء الآدمى . ألا يمكن للنفس الشاعرة ان تقيم هناءها على دعائم اثبت قليلا من هذه الرمال التى تغرق فيها الإبل . وتكتب أغانيها على صفحات ابق من صفحات هذا الماء التى تطويها فى شبه طرفة العين انامل الهواء !

نعم هنالك سبيل واحد : لا ينبغى أن نبنى شيئاً جميلا فوق هذه الأرض ! ! . هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها ! .

وفطن الفتى ، ان هنالك حقاً نوعاً من الهنـاء قد عرفه

يوما . هو هناء الصفاء . هذا الصفاء الذى لايوجد إلا فى الارتفاع . . .

* * *

وأحس الفتى فعلا كأنه قد خف وزنا ، وكأنه يرتفع وكأنه يبتعد عن الأرض ، ليعود إلى السماء ، إلى سمائه التى كان قد هبط منها . . .

ولعل « الأرز » عانه على ذلك . فان « الزهد » هو سلم « الصعود » ! ! .

واقبل الفتى بعدئذ على غذائه الحقير الضئيل فى لذة روحية ، وبسمة راضية وضاءة ، انارت له مسالك نفسه المظلم ، وذكرته بسروره فى صباه يوم كان يقتات « بالفول النابت ، ويجلس بكتابه كل يوم إلى جوار ضريح (السيدة زينب) . . .

لم يكن شىء يعكر عليه صفاءه الروحى يومئذ غير حارس المسجد ، ذلك الشيخ المتأنق فى عباءته الثمينة وشعره المخضب

بالحناء وعيونه الكحيلة ينظر بها إلى صندوق (النذور) بين يديه، وغير سجاجيد المسجد الغالية. وثرياته الكبيرة. لماذا كل هذا؟ إن الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصير حيث كان يتخذ مكانه دائماً، لا فى قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش. وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب والخشوع الزائف. إنما فى تلك الردهة الخارجية التى طرح الحصير على بعض أرضها وترك البعض الآخر عارياً نظيفاً. كالنفس النظيفة العارية. كان يحس الفتى هنالك أنه أقرب إلى روح السيدة الطاهرة..

وجعل محسن طول يومه هذا يقلب مثل هذه الأفكار وعاوده شوق وحنين إلى المسجد، أو إلى بيت من بيوت الله. وتذكر الكنيسة. نعم إن فيها أيضاً قد أحس يومئذ عين إحساس الصعود. لكن، تلك المراسيم والطقوس.. سرعان ما جذبته إلى الأرض لتوقعه فى ذلك الحرج الذى وقع فيه ذلك اليوم...

نعم ، كلما همت روح الانسان بالتحليق نحو الأعالى كبلتها أكاذيب الانسان وأنزلتها إلى التراب ، كل شقاء الانسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئاً عظيما ذا قداسة بغير أن تلبسه ثياباً مبتذلة مضحكة من حمقها وزيفها وغرورها ؟

لماذا أراد الناس أن يجعلوا (الله) فى حاجة إلى السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته . و(السيدة) فى حاجة إلى (النذور) والنجف والشمع ، كأنها لا تستطيع النوم فى الظلام . ثم ذلك (القمقم) الفضى فى الكنيسة ، وتلك الأشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟ حتى (الموسيقى العظيمة) التى استطاعت أن ترفع الانسان إلى بعض القمم ، سرعان ماجعلوا لها ثياب سهرة ترتدى من أجلها ، وقواعد وتقاليد لابد من مراعاتها . وتنقلب الأمور على مر الزمن ، فينسى الناس الأصل والجوهر ويذكرون الفرع والعرض . فاذا كل التفاتهم إلى ثياب السهرة دون (الموسيقى) . وإذا كل عنايتهم بالمظاهر والمجاملات دون الإيمان والعبادات .

ولا يستثنى من بين هؤلاء إلا الفقراء التعساء الذين جاءوا حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك . . إلا الهواة (زباتن) أعلا (التياترو) الذين حضروا حقيقة من أجل الموسيقى .

إن « الأخلاص » للدين والفن ، يستوجب « التجرد »!

وذكر محسن « بيتهوفن » . وتلك السانفونية الخامسة التى كان قد سمعها . وذكر ذلك الجو العلوى الذى عاش فيه ذلك اليوم . فحدثته النفس بالذهاب إلى « الكونسير » .

نعم ، فليذهب ولو أدى ذلك إلى حرمانه أكل الموز شهراً بأكمله . لا لزوم للفاكهة . إنه يستطيع أن يكتفى بالأرز أسبوعا . وأشرق وجه الفتى لهذه الفكرة . وأحس كأن برداً وسلاماً يهبطان قلبه ويضمدان جروحه . إنه الآن يشعر ببعض القوة . ولم يعد يخشى شيئاً . هو الذى كان قد حرم على نفسه ، خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة « الأكاسيا » . تلك التى أجهزت على أمله ذبحاً بخطاب رقيق رقة حد السكين المسنون !

نعم ، الآن ... بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم بالسحب ضد هذا الحب الأرضى الذى وضع أنفه فى الرغام .

وذهب محسن إلى مسرح « شاتليه » ، فوجد من حسن حظه (برنامجاً) موسيقياً حافلا : (پارسيفال) و (سحر يوم الجمعة الحزينة) لريتشارد فاجنر ، و (السانفونية التاسعة) لبيتهوفن .

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان للوقوف بأعلا المسرح . فما تردد . وكان حريصاً دائماً على اقتناء ذلك الكتيب الصغير الذى يباع فى الردهة ، فان فيه تحليلا دقيقاً فى أكثر الأحيان للقطع التى تعزف ، وبيانا عن ظروف وضعها ، ونبذاً من تاريخ مؤلفيها فما أحجم عن شراء نسخة ، وأسرع يتخذ له مكاناً تحت مصباح من مصابيح الكهرباء ، وجعل يطالع على عجل هذه السطور :

(لقد أراد فاجنر أن يصور بموسيقاه قصة المسيح إذ جاء يحمل إلى الإنسانية التى نخرت فيها « الأنانية » ناموس « الحب »

الذى يخلصها من الخطيئة . ولقد جاء فى خطاب خاص أرسله فاجنر إلى صديقه الموسيقى (لست) كيف نبتت فى خاطره فكرة تأليف هذه القطعة ، ووصف المشاعر التى أثارتها فى نفسه ذكرى الجمعة الحزينة فى يوم من أيام الربيع ، حيث كان فى مدينة زوريخ : « لأول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على شمس مشرقة ، فنظرت إلى الحديقة حولى فألفيتها خضراء تصدح فيها العصافير . فجلست على عتبة البيت أنعم بهذا (السلام) الذى انتظرته طويلا . وأثر فى نفسى هذا الصفاء الذى يكشف الأشياء ، فتذكرت من فورى أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس . وعند ذاك خطر لى أن أضع هذه القطعة ..»

وانقطع محسن فجأة عن القراءة ، فقد أطفئت الأنوار ، ووقف (المايسترو) ينقر بعصاه الرفيعة نقراً خفيفاً على قمة مصباحه الأخضر تنبيهاً للعازفين ، وبدأ الأوركستر يعزف مقدمة (پارسيفال) :

نغمة ترتفع منفردة أول الأمر لايصحبها شىء ، كأنما

هو صوت واحد يتكلم، وسط سكون الكون . صوت فى عين الوقت إلهى وبشرى . وتمضى تلك النغمة حاملة فى أعماقها بذور الألحان الدينية التى تتركب منها القطعة ، إلى أن تقابلها تلك الأقوال المقدسة : خذوا وكلوا هذا هو جسدى، خذوا اشربوا هذا هو دمى . . ثم يسمع من (الكواتيور) شبه رعدة مبهمة بين عديد من الأنغام السريعة المتعاقبة ورنين الصناجات المكبوت ، كأنما هو صوت طليق ممتد يخفت شيئاً فشيئاً تحت قباب كاتدرائية عظيمة . .

واستمر الأداء . ومحسن ليس على هذه الأرض إلى أن أشار (الاستاذ) بعصاه إشارة الانتهاء ، وانطلقت الايدى بتصفيق كأنه الرعد . فتنبه الفتى . وقام الناس يدخنون فى فترة الاستراحة أو يتحادثون . وبقى محسن واجما فى مكانه . ولمح على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين (الكورس) من سيدات ورجال ينتظمون فى أماكنهم ، فرفع الكتيب إلى عينيه ليقرأ ماقيل عن قطعة بيتهوفن . ويهيىء نفسه للمثول بين

يدى هذا القلب العظيم ، كى يسمع منه ، ويفهم عنه . وقرأ الفتى هذه الصفحة : (وبلغ فن بيتهوفن فى السانفونية التاسعة غاية ما يستطيعه بشر فى عالم البناء الصوتى ، ولقد أخرج هذا العمل فى تلك المرحلة من حياته التى ابتلى فيها بالصمم . كارثة، جاء ذكرها فى وصيته التى كتبها فى أكتوبر ١٨٠٢ على أثر أزمة قوية من أزمات اليأس تبدو من هذه الأسطر : إلى شقيقى كارل وجوهان بيتهوفن : أنتما يامن كنتما تحسبان انى إنسان حقود عنيد أكره الناس . ما أظلمكما ! إنكما لتجهلان السبب الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى . إنى منذ الطفولة كنت أحس أن نفسى وقلبى يتجهان بطبعهما إلى الخير. إنى كنت دائما على استعداد للقيام بأعمال عظيمة . لكن . . لاتنسيا انى منذ أعوام ستة أصبت بداء قاس ، زاده خطراً عجز الأطباء . وانى ألفيت نفسى مرغماً على العزلة قبل الأوان، وعلى انفاق بقية حياتى بعيداً عن العالم ولقد حاولت أن أتجاهل أحياناً مانزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى

دائما بأنى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فانى لم أستطع أن أتجرأ مرة وأقول للناس : تكلموا بصوت عال ، صيحوا ، إنى أصم ! . آه كيف أعترف بهذا وأعلن للناس ضعف حاسة ، كان ينبغى أن تكون عندى أقوى مما عند جميع الناس . حاسة ، كنت أملكها فيما مضى على أكمل نمو وأدق تركيب وأرهف شعور ، مما لم يتيسر مثله إلا لقليل غيرى من الموسيقيين . كلا . لا أستطيع . لهذا أرجو أن تصفحا عنى إذا كنت اليوم أهجر ، كما تريان ، هذا العالم الذى كنت فيما سبق أمرح فيه بكل نفس راضية . إنى لشديد الاحساس بمصيبتى ، وإنى من أجلها ينكرنى الجميع . لم يعد الآن من حقى أن أنشد الراحة فى صحبة اخوانى الآدميين . انتهت مسرات المحادثات اللطيفة ولذات المناقشات الرفيعة . انتهت المصارحات القوية وتبادل المناجاة الحارة ، حالى الآن لايسمح لى بارتياد المجتمع إلا بالقدر الذى تحتمه الضرورة القصوى . ينبغى إذن أن اعيش مطروداً منبوذاً . اى اذلال يجرح نفسى احياناً ، إذ أرى إلى جانبى احد

الناس يصغى إلى انغام مزمار يعزف عن بعد لا استطيع ان اسمعها ، او أناشيد راع . لا استطيع ان اسمعها كذلك .

(يروى احد اصدقاء بيتهوفن انه فى صباح صيف ١٨٠٢ استرعى التفات صديقه إلى راع فى الغابة يعزف على ناى من قصب الحاناً شجية ، فأبدى بيتهوفن جهداً مرهقاً ليسمع شيئاً فلم يستطع ، ورفق به صديقه فكذب عليه وزعم له انه هو أيضاً لايسمع شيئاً لبعد الصوت عنهما ، ولكن بيتهوفن فهم الحقيقة وغرق فى حزن عميق) . مثل هذه الحوادث كانت تلقى بى على أعتاب اليأس ، وكادت تغرينى بأن أضع حداً لأيامى . . ولكنه الفن وحده هو الذى أبقى على حياتى . آه . إنه ليشق على ترك هذا العالم قبل أن أعطى كل ما أحس داخل نفسى من مخلوقات لم تزل بعدُ فى طور التكوين ! . . آه أيتها القدرة الالهية ! إنك لترين من عليائك ذلك القاع السحيق فى اعماق قلبى . إنك لتعرفين انه عامر بحب الانسانية والرغبة فى عمل الخير . يا شقيق كارل وجوهان . إذا انتهت أيامى وكان

طبيبي الأستاذ « شميت » لم يزل حيا ، فالتمسا منه باسمى أن يصف دائى وان يرفق ذلك بصفحاتى هذه ، فلعل الناس بعد موتى يصفحون عنى على الأقل . أما إساءتكما لى ، فأنتما تعلمان انى قد صفحت عنها منذ أمد بعيد . . . وكل ما أتمنى الآن أن تكون حياتكما ايسر من حياتى وان تعفيا مما رزئت أنا به من متاعب . وأوصيكما أن تعلما أطفالكما « الفضيلة » فهى وحدها ، لا « المال » ، السبيل الحقيقى للسعادة . وإنى أتكلم عن تجربة . « فالفضيلة » هى التى كانت كل سندى فى محنتى وإليها وإلى « فنى » يرجع كل الفضل فى انى لم ألجأ إلى الانتحار . وداعاً ! وليحب أحدكما الآخر ! . . » لقد كان بيتهوفن يعيش اذن فى ظلام السكون عندما اخرج سانفونيته التاسعة . ولقد احتمل كل ذلك فى جلد كما قال فى وصيته ولقد خضع لحكم القدر فى شجاعة كما يقول فى مذكرات أخرى : « الاذعان ، الاستسلام ، الاستسلام ، فلنعرف كيف نستخرج الدرس الخلقى النافع من أفدح المصائب والكوارث .. بذلك

نجعل أنفسنا جديرين بمغفرة الله ! » .

لم يبق إذن لبيتهوفن من الحياة غير متعة « البصر » عيناه وحدهما أمستا كل صلته بالطبيعة ، وقد انحصر كل فرحه فى إرسال النظر إلى وديان « فينرفالد » الخضراء ، يهيم فى غاباتها ملتمساً من الطبيعة العزاء ، آملا أن يجد فى صدرها كل قوى الحياة والخلق ، صائحاً فى فضائها من أعماق قلبه تلك الصيحات التى وجدت مدونة فى أوراقه :

« يارب الغابات ، يارب القدير على كل شىء ، إنى أحس البركات ، وأشعر بالسعادة فى هذه الغابات ، هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعنى صوتك . يالها من روعة أيها المولى العظيم ! هذه الأحراش ، وهذه الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام . هذا السلام الذى لابد لنا منه لنستطيع ان نتفانى فى خدمتك ! » .

ووقف محسن عن القراءة فى عجب وتأثر شديدين ! لكأن عبيراً يعرفه يهب من طيات هذه الكلمات . إن هى إلا

كلمات صادرة من النبع الذى صدرت منه كلمات أنبياء الشرق.

وأطفئت الأنوار وتكلم بيتهوفن . إنه لا يتكلم كبقية الناس . لكنه يقيم من الأصوات عالما لا تدخله ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة . وتحددت أركان تلك السانفونية ووضحت للآذان والأرواح هيكلا عظيما مشيداً على أعمدة نورانية ، من أنغام آلية وأصوات آدمية . .

ولم يتمالك محسن . وأخذته رجفة . وتصبب جبينه العرق نشوة عليا . عندما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى جانب صيحة « الكورس » :

« قفوا متعانقين
أيتها الملايين من البشر
أيها الأخوة ،
أن فوق النجوم أبا
حبيباً إلى كل القلوب ! »

ولبث الفتى مشدود الأعصاب متفصد الجبين فى شبه ذهول

حتى عزف « اليجرو » الختامى ، والتقت أصوات الرجال والنساء بصوت « الأوركستر » . . ، فكأنما أستار السماء قد انفرجت ، ليصل إلى آذاننا غناء الحور والملائكة مجتمعين فى جنة الخلود يلقون نشيد الفرح ، ذلك القبس الالهى . فرح الأنفس التى تعيش فى « الله » !

الفصل التاسع عشر

نزل محسن الدرج ليخرج كعادته إلى الطريق، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل . فرأى باب حجرة صديقه إيفان مفتوحا، وسمع سعاله، فعطف عليه وضرب الباب مستأذناً. فأذن له. ودخل الفتى فوجد الروسى جالساً على سريره. أصفر الوجه. بين يديه كتب ثلاثة.

— كيف حالك اليوم يامسيو إيفانوفتش ؟

— بخير.

— إنك تجهد قواك فى القراءة وأنت لم تزل مريضاً.

— إجلس !..

قالها الرجل على نحو غريب. عجب له الفتى ونظر بطرف عينه إلى الكتب وقرأ فى دهشة :

— التوراة، الانجيل، القرآن !

ثم التفت إلى إيفان :

ـــ عجباً ! انك فيما أعلم لاتؤمن بشيء . . .

فقال الرومى كالمخاطب لنفسه :

ـــ أريد أن أعرف كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطى البشرية راحة النفس وأن تغمرها فى ذلك الاطمئنان! نعم . انى لاأؤمن بشيء وانى أرى أحيانا الموت دانيا منى وفى يده « خرقة » ليمحونى كما يمحى رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء ! فأحتقر نفسى وازدرى كل حياة انسانية . آه . ما أسعد أولئك المؤمنين الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة . انهم لاشك ينظرون إلى الموت كأنه عربة « پولمان » فى قطار سريع يذهب بهم إلى نزهة « آخر الأسبوع » . . . ان مثل هؤلاء لايمكن أن يروا الحياة الانسانية الا أنها شيء عظيم . لانها تشغل الكون دائما ، طول الخلود ، إنهم لايستطيعون أن يزدروا أنفسهم هؤلاء الناس !

ـــ ولماذا لاتؤمن أنت أيضاً بالحياة الأخرى يامسيو إيفان؟

ـــ آه ! ثق انى أريد . فالرغبة والارادة لاتعوزانى .

ولكن ... أمن الممكن لمثلى الآن أن يؤمن بالجنة والنار كما كان يؤمن بها المسيحيون فى عصر الشهداء. إنهم كانوا يتقدمون للذبح ، ويلقى بهم إلى انياب السباع وهم يبسمون ، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم ، مصغين إلى صوت المسيح يقول لهم من عل : « طوبى لكم اذ عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا وتهللوا ، لأن أجركم عظيم فى السموات ! »

— ومثل ايمان المسلمين فى عهد النبى، فقد حدث فى موقعة « بدر » التى نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش، أن مسلماً ترك القتال وانتحى يأكل بلحاً . فسمع النبى يقول : « لا يقاتل اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا الا أدخله الله الجنة » فقذف الرجل بالبلح من يده، وقام يصيح : « أفما بينى وبين دخول الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟! » ثم رمى بنفسه فى أحضان الأعداء ...

— نعم ، يخيل إلى أن مثل هذا الايمان لا يمكن أن يعرفه الغرب اليوم . إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان ،

إنما أعطاها على النحو الذى ذكرنا . فتسلمها الغرب وألبسها أردية موشاة بالذهب ووضع على رؤوسها التيجان المرصعة بالماس واقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضى . إن الكنيسة فى أوروبا كانت فى يوم ما أعظم مؤسسة مالية ، وأن نظامها الرأسمالى لأدق نظام . وأن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية وتقوضها إذا شاءت فى طرفة عين . فأين ذهبت كلمة المسيح : « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ، لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله ! »

— وأين ذهبت كلمة النبى محمد : إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة ! ثم قوله أيضاً: « اللهم توفنى فقيراً ولا توفنى غنياً واحشرنى فى زمرة المساكين ! » .

— نعم لاشك أن المسؤول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم . أولئك الذين كان ينبغى لهم أن

يتجردوا من كل متاع الأرض ويظهروا فى زهدهم بمظهر المنتظر حقاً لنعيم آخر فى السماء. لكننا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الأرض وما فيها من أكل طيب يكنزون به لحما، وخمر معتق ينضح على وجوههم الموردة، وتحت إمرتهم السيارات يركبونها والمرتبات يقبضونها... إنهم يتكلمون عن السماء، وكل شىء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون فى جنة السماء، وأنهم متكالبون على جنة الأرض، هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس فى حقيقة مملكة السماء. إن كل مابناه الأنبياء بزهدهم الحقيقى وجوعهم وعريهم الذى اقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقاً ينتظرون شيئاً فى العالم الآخر. جاء هؤلاء فهدموه ... وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء وخير دعاية لمملكة الأرض. وأنسوا الناس بانغماسهم فى هذه الحياة، ان هنالك شيئاً آخر غير هذه الحياة.

ـــ صدقت فى كل هذا يا مسيو إيفان. إن مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس.. لكن أنت.. من كان مثلك

على هذه الثقافة وهذا العلم . . إنك تستطيع أن تقيم ايمانك على لباب الكتب السماوية وحدها بغير حاجة إلى . . أحد . .

— وهذا ما أردت ان افعله أيها الصديق ، منذ ليالى وأيام . . غير انى . . ينبغى أن أصارحك . . لم أستطع . . لم أستطع مطلقاً .

— لم تستطع ماذا ؟

— آه . . لقد فسدت فى رأسى كل تلك الصور الجميلة للحياة الأخرى ، كما تفسد زجاجات الصور الفوتوغرافية عندما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء . . لست أدرى سبباً لذلك ، يخيل الى أنها الحضارة الأوروبية الحديثة ، لاتسمح للناس أن يعيشوا إلا فى عالم واحد . إن سر عظمة الحضارات القديمة انها جعلت الناس يعيشون فى عالمين . لقد عرفت تلك الحضارات « العلم » و « العلم التطبيقى » فالحضارة التى تشيد الأهرام لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصور التى تمثل الحياة الأخرى . تلك الحضارات اسميها أنا « الحضارات الكاملة » . ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطا بالزواج فى طور من

أطوار التاريخ وانتجا مولوداً جديداً : هذه الفتاة الشقراء التى تسمى « أوروبا » : جميلة رشيقة ذكية ، لكنها خفيفة أنانية لا يعنيها إلا نفسها واستعباد غيرها . .

وهنا قاطعه محسن قائلا كالمخاطب نفسه :

ـــ نعم . «أنانية» لا تعرف غير حياة الواقع ، ولا يهمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة الا فى . . . الحياة فمضى الروسى يقول دون أن يفهم ماجال فى خاطر الفتى :

ـــ نعم ، نعم . هى كذلك حقيقة . إن هذه الفتاة ترى المجد كله فى شىء واحد : ان تضع الأصفاد فى أرجل البشر . وبدأت أول مابدأت بأبويها : إفريقيا وآسيا . أنكرتهما وحبستهما . وانطلقت فى الحياة لا يحدها حد ولا يقوم لها شىء . إلى ان انتهى بها المطاف فى بيت من بيوت الليل تديره وتشاهد فيه شجار السكارى يحطمون الكراسى والكؤوس . انى أخشى ان تكون أوروبا موشكة على دفع الانسانية إلى هوة . إنها لتشوب احياناً إلى رشدها وترى مصيرها فتقع فى

أزمة من أزمات الضمير: إنها لتستيقظ فيها الروح احياناً فتشك فى نفسها ويخيل إليها ان مدنيتها الخلابة ليست إلا بهرجاً وأن علمها الحديث كله وهو وحده الذى تتيه به على البشرية فى مختلف تاريخها ليس من حيث القيمة العملية غير «لعب» من صفيح وزجاج ومعدن، قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم. ولكنها اخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها إن السكك الحديدية والطيارات قد اعطتنا السرعة وتوفير الوقت، ولكن ما فائدة ذلك، ولماذا السرعة. ولماذا توفير الوقت. كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط، ما نحن إلا قطرات ماء فى نهر الحياة، ما حظنا من سرعة التيار واندفاعه إلى البحر! إنما حظنا الأكبر فى التمهل حول الأعشاب الناتئة والسكون عند شواطىء الجزر يداعبنا النسيم! من الذى استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين جمعوا فى أيديهم الثروات وسموا بالرأسماليين. أما أنا وانت وبقية الآدميين الوادعين فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة على ظهور الجياد أو الأبل.

ننزل فى كل مرحلة ننعم بالطبيعة فى أشكالها المختلفة وفى أوقاتها المختلفة . نعم كسبنا السرعة ولكن خسرنا ثروة النفس التى تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة. إنما اليوم نفرح بكلمة السرعة وننسى أنها ليست سوى إغفاءة نقضيها فى عربة قطار يمرق بنا فى نفق مظلم ويوصلنا حقيقة فى وقت قليل إلى حيث أردنا. ولكنا لا نعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقى، فننفقه فى الحمق والسخف ، إن الطبيعة لتنتقم ، وان كل وقت يسرق منها لا نجد له سوقا ننفقه فيه غير سوق النخاسة الخلقية والانحطاط الآدمى!! كذلك السينما، كما يقول دوهاميل لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة فى العلب أو قصصاً سخيفة تؤثر فى أعصابنا تأثير الأفيون . والراديو وما يقدمه من قشور المعلومات وردىء الموسيقى. كل شىء فى هذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الانسانية العليا وصفاتها الآدمية السامية وقواها الطبيعية الكامنة بتعويدها التراخى والكسل باسم « الراحة الحديثة » حتى نامت كما ترى النفوس والأرواح ، واصبحنا أمام ناس مصـــنوعين من

« الألومنيوم » . مصيبة المدنية الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى . هذه الصناعة التى شطرت المجتمع الأوربى إلى شطرين ، فئة قليلة كل همها جمع المال ، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال فى مقابل لقمة . الفئة الأولى لادين لها إلا الذهب ، والفئة الثانية لادين لها اطلاقا ولا شخصية ولا نفس ، لأنها آلات صماء . إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجا إلى ثمان عشرة عملية مختلفة كما يقول آدم سميث ، وان العامل الواحد قد يقضى حياته كلها فى صنع رأس الدبوس فقط ، وآخر فى صنع جـــزء آخر منه ، كذلك الحال فى صـــناعة الأحذية فهى فى بعض المعامل الأمريكية تقسيم إلى أكثر من مائتى عملية يخص العامل الواحد منها جزءاً واحداً من عشرة أجزاء كعب الحذاء معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القـديمة التى كان يحسها ويرتاح إليها وهو يصنع بيديه حذاء كاملا فى حانوته الصغير . نعم . حتى متعة الخلق الكامل التى كانت تشعره بآدميته

قد ذهبت، وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار، يخرط أو يطرق أو ينشر جزءاً صغيراً معينا بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته. ما الفرق بينه اذن وبين الآلة؛ لا فرق. ان الرجل الشرقى مازال يحس آدميته بالنسبة للشىء الذى يصنعه ويخلقه بيديه، آنية من الفخار كان أو حذاء أو رداء منسوجا على نول. أو قطعة أرض يزرعها ويجنى ثمارها. إنه لم ينقلب بعد لحسن حظه منشاراً آدمياً أو مخرطة بشرية. استمع إلى الكاتب الانجليزى «ألدس هكسلى» يصف أوروبا الحديثة: «إن أسلوب الحياة فى العصر الحاضر ليدعو إلى الاشمئزاز ذلك ان تطور النظام الصناعى قد أدى إلى نمو فجائى لتعداد أوروبا، ففى نحو قرن واحد تضاعف سكانها. ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائى للجميع. فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء. ونشط لهذا الجمهور أصحاب الأعمال فأنشأوا صناعة جديدة: هى صناعة «مادة القراءة». هذه «المادة المقروءة» لم تكن ولا

يمكن أن تكون مطلقاً غير بضاعة من النوع الردىء جداً . لماذا ؟ تلك مسألة حسابية : إن عدد الكتاب أصحاب الموهبة الفنية قليل دائما . ومن هنا نرى أن الجانب الاكبر للأدب المعاصر هو دائماً غاية فى الرداءة . ولما كان الأوربيون قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت . وتلك رذيلة ، كعادة تدخين السجاير ، بل ربما كتدخين الأفيون أو تعاطى الكوكايين ، فان أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة . وهذا كله حدث جديد . إذ فى الماضى لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ، لكنها كانت من أجود نوع . ولأضرب مثلا بالانجليز ، فلقد كانوا إلى عصور قريبة يشبون على « الكتاب المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لجون بانيان . كتابان لا نظير لهما فى نبل المعنى وصفاء الأسلوب . أما اليوم فانهم يشبون على « الديلى اكسبريس » وعلى المجلات والقصص البوليسية . فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة : فهو بدلا من أن يجعل الناس يقرءون قليلا الآثار الخالدة

قد جعلهم يقرءون دائماً حماقات مخجلة ! ان الفن القديم قد يقصر أحيانا عن الاجادة لأنه ساذج أو ناقص ، ولكنه لم يكن يوماً قط مبتذلا . لماذا ؟ لأن الأقدمين لم تهيأ لهم الأسباب أن يكونوا مبتذلين !

فأطرق محسن قليلا ثم قال :

ـــ نعم ، ربما كان هذا صحيحاً . إن الأعرابية فى خيمتها ، تلك التى كانت لا تعرف ماهى القراءة والكتابة ، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير والأخطل والفرزدق ، وتتغنى بأحسن أغانى مصعب ونصيب وإسحاق الموصلى ، وتطرب للفجر الجميل وتهتز نفسها لنسيم الأصيل ، وتفضل الصحراء بفتنتها الطبيعية على سحر القصور الزائف ، إن مستوى الذوق العام وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية لاشأن له بكتابة أو قراءة .

فقال الروسى بقوة :

ـــ على النقيض ، إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة

كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة التى روجتها أوروبا وجعلتها بمثابة المبادىء الثابتة ثبوت العقـــائد ، قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية فالدهماء التى تعلمت تلك الرموز السخيفة ماذا اكتسبت ؟ لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول « هكسلى » ، وهبط مستوى ذوقها ، ومع ذلك لم تتكون لها شخصية ولا إرادة . فها أنت ذا تراها تنقاد كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقاً أمام « ميكروفون » فالدهماء هى الدهماء ، ولا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية فى التهذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة وتركها تتصل بالطبيعة لا « محفوظة فى علب » الراديو والسينما والكتب ، ولكن الطبيعة الحقيقية ، أمنا الرؤوم ، تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة ، بغير وسيط من الرأسماليين المغامرين وأصحاب الأعمال الأفاكين. تلك هى نتائج العلم التطبيقى عندما ترك فى أيدى الأوروبيين ، وذاك أثره فى النفس الانسانية ، أنظر بعد ذلك أثره فى جسم

البشرية ، تجدأنه استحال إلى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات إلى آخر ذلك الابداع والتفنن فى وسائل الفتك بأجسام البشر . فالعلم التطبيقى فى الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحا وجسما . إن العلم تلك « الماسة » العظيمة المتألقة لم تضعها أوروبا فى قمة عمامتها لتشع نوراً وجمالا ، ولكنها وضعتها فى سن مخرطة بخارية لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم : كأس البشرية الممتلىء بماء روحها ومادة جسدها . أما العلم الصرف البعيد عن ضوضاء « الآلة » ومطامع أصحاب المنافع ، فان الشرق هو الذى عرفه لذاته كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة فى تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا . وهنا كل نبل العلم وسمو غايته . هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا ، سبائك ذهبية وأحجاراً كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت ، فاحتفظت الفتاة ببعضه وجعلته حليا لبهرجها ، وهنا كل جمال أوروبا الفكرى الباقى ، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً

تضعها فى المصارف ، وصنعت منها أغلالا تستعبد بها العالم . ومع ذلك فهى لم تعرف التحلى بالعلم لذاته إلا منذ عهود قريبة ؛ لا تنس أن أوروبا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم علماءها حرقا واتهمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت حرية الرأى حتى فى شئون الأدب والفن . وجعلت من المسيحية التى تبشر بالمحبة والسلام سلاحاً للفتك أمام محاكم التفتيش . ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلا من ذى قبل ، فهى تجيد إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعى يمثل أجنحة ملاك سماوى. إن أوروبا اليوم فى أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها . ذلك انها قد تنبهت إلى أن مازعمته مدنية عظيمة قد أفلس وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية . وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لاقلب لها ولاضمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ، وأن مآلها السقوط ممزقة الجسد تحت موائد المعربدين فى ذلك الخان الذى تشرف نوافذه من جهة ، على المحيط الأطلانطى ، ومن

الجهة الأخرى على البحر الأسود. أيها الصديق. إلى الشرق. إلى الشرق! فلنرحل معاً إلى الشرق. إن أجمل ما بقى لأوروبا إنما أخذته عن الشرق. لم تعد حياتى هنا. ماذا نصنع الآن ههنا ؟؟ حتى راحة النفس لانجدها هنا. إن العودة إلى الهدوء والصفاء هى فى عودتنا إلى فضاء الصحراء، هناك نستنشق بملء رئتينا. لادخان المداخن، ولكن رائحة السماء، هناك لانجد تلك السحب الكثيفة التى تحول بيننا وبين الله؟ هلم بنا، لقد يئست. إن قليلا من الأمل كان قد داعب قلبى إذ تذكرت منذ ايام حكاية عودة الشاعر الفرنسى «كوكتو» إلى حظيرة الكنيسة، وأنت لاشك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق. لقد استنفد كل حياة الفكر والفن، وعرف المجد الأدبى، وانغمس فى نهر الحياة اللاهية، وبلغ كل مايستطيع أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيداً عن الايمان. فماذا حدث؟ تملكه السأم من الحياة، وشعر بالنقص فى كيانه، وبالفراغ فى قلبه. فضاق ذرعاً بأيامه، فألقى بنفسه القلقة فى أحضان «الأفيون» لعله يجد فيه

الشفاء والراحة . استمع إليه يقول فى خطابه إلى صديقه الفيلسوف «جاك ماريتان» : «إن الأفيون ليحملنا إلى نهر الموتى، إنه ينسخنا ويحولنا إلى شبه مرج من المروج اللطيفة ، ويجعل من جسدنا ليلا تتزاحم فيه النجوم كأنها النمل، ولكن سعادتنا هى سعادة فى مرآة ، نغدو فيها من رؤوسنا إلى أقدامنا محض أكذوبة وإذا نحن كالمومياء : تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن تطيع، لا تؤثر فينا تقلبات الطقس ومانعود نشعر ببرودة أو حرارة . لقد كان مصورو نابلى يزينون حيطان المساكن بما يسمونه « خدعة العين » . إن الأفيون ليس إلا مصوراً طريقته « خدعة الروح » . إنه يزين حيطان الحجرة التى أدخن فيها بتصاوير تلذ لى وتريح نفسى . إن الأفيون هو طارد الحيرة والقلق . إن الأفيون ليشبه « الدين » بالقدر الذى يشبه فيه «المشعوذ» « المسيح ! » .. الخ . الخ . وأشرف « كوكتو » أخيراً على الدمار ، إلى أن ألقى بنفسه فى أحضان الدين. هنا كان أملى الأخير أنا أيضا .. إذا اعتقدت أن الأوروبى

المفكر الذى شب على هذه المدنية يستطيع أن يعود إلى الأيمان الحقيقى فى الوقت المناسب . إلى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين « كوكتو » و « ماريتان » . فخامرنى الشك . إنها رسائل على غاية ماتكون البراعة فى الأسلوب واتقاد الذكاء، ولكنها ليست أكثر من « قطع أدبية » . آه ، إنهم يكتبون « أدبا » هؤلاء النـــاس حتى يوم يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أو موت . . . إن الفرق بين عبقرية الغرب الروحية وبين عبقرية الشرق الروحية ، كالفـــرق بين « المشعوذ » و « المسيح » ! خذ هذين الكتيبين اقرأهما واخبرنى هل تصدق أن هذين الرجلين يعتقدان حقاً بالسماء وما فيها من جنة ونار ، اعتقاد ذلك المسلم الذى قلت لى الآن إنه ألقى البلح من يده ، وجرى يقدم نفسه للقتل ، واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحيين الغـابرين ! إنى أفهم ان يتكلم هؤلاء الشعراء الأوربيون عن الدين والمسيح كلاما كله إعجاب خالص. إنى أيضاً أعجب الاعجاب الخالص بالأديان ولكن الذى اريد

ليس مجرد الاعجاب ، كما نفعل أمام قطعة فنية من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر . لست أريد الاعجاب الناشىء عن آلاتنا المفكرة وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة، إنما أريد الايمان ، إيمان القلب ، الايمان الأعمى بأن المسيح فى السماء وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء . وان الجنة هى الجنة كما يتخيلها اولئك الذين قال فيهم المسيح : « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ! طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله! » .

آه ياصديقى ، يا أخى . إن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلا مفكراً قلقاً حائراً يتعاطى الأفيون . إن « جان كوكتو » هو كل (أوروبا) فى أزمتها الحاضرة . انتهت أوروبا ، ولا شىء من داخلها يستطيع إنقاذها ، لأن كل شىء إلى (عقليتها) هذه . تحوله إلى أدب واسلوب وزيف وكذب . إنما الانقاذ من الخارج ، إنما النجاة فى الفضاء إلى هناك .. إلى الشرق .. قم معى .. إلى الشرق . إفتح هذه النافذة ..

دع الهواء يدخل، إخلع عنى هذه الأردية الثقيلة . هذه السحب الكثيفة تحجب عنى...

وامتلأ فم الروسى برغوة وزبد . ووضع يده على عنقه يمزق قميصه كأنما هو يختنق . واصفر وجه محسن . ولم يبد حراكا .. ثم تنبه قليلا من ذهوله ، فصاح صيحة مدوية ، وأسرع إلى الباب يطلب النجدة ..

الفصل العشرون

اعتكف محسن بضعة أيام . علم خلالها أن صحة إيفانوفتش غاية فى السوء . وجاءه صاحب النزل ذات صباح يطرق عليه بابه . ففتح له منفزعا :

— ما الخبر ؟

— صديقك الروسى . . .

— مات ؟

— لم يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس . .

— وكيف حاله ؟

— لست أدرى ، هو يزعم أنه اليوم بخير ، ولكنه مريض بذات الرئة . كما تعلم ، داء لا يرحم . . . أتذكر ذلك اليوم عند ما صحت مستنجداً ؟ لقد أغمى عليه أيضاً فى المساء وكان فى حالة احتضار حقيقية فاستدعينا له القسيس . ولكنه

مافتح عينيه قليلا وأبصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه ثائر : « ابعدوا عنى هذا السكير بوجناته الموردة ! » . وتصور عندئذ أى حرج وقعنا كلنا فيه ! . . على أى حال ، قد بلغتك يا مسيو محسن ، ولك أن تذهب إليه إذا شئت ، أو لاتذهب . .

وخرج صاحب النزل ، تاركا الفتى فى مكانه مطرقا مفكراً . ولم يجد محسن بدا من الذهاب إلى إيفان على الفور ، فقام ومضى إلى حجرته ، فوجده فى فراشه يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة . وتنبه الروسى لحركة دخول محسن ، فوجه بصره إليه ، وأشار له بعين باسمة إلى شعاع ذهبى انعكس على الفراش :

— ما أجمل الشمس اليوم !

— نعم . . .

قالها الفتى فى غير اكتراث وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب ، وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال الساذج بهذا

الشعاع فوق سريره . وساد صمت . قطعه المريض بشبه همس :

— آه . النور . . النور يشرق من بلاد الشمس، ليغرب فى بلاد الغرب !

ثم التفت إلى محسن وقال له فى صوت متداع :

— اقترب ياصديقى ، وأنهضنى قليلا . . فانى سئمت طول الرقاد ! . .

فتردد الفتى خوفا عليه :

— إنى أخشى . .

— لا تخش شيئاً . ضعنى بجوار النافذة . أعنى على الجلوس حيث يغمرنى نور الشمس .

فلم ير محسن بدأ من تلبية رغبته . فساعده على القيام ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبى حيث وضعه عليه وضعاً . فقال الروسى وهو يستنشق الهواء بما بقى له من رئتين :

— شكراً لك . . . أيها . . . الصديق .

ثم أمسك بيد محسن بين يديه ونظر إليه طويلا وقال :

— أتعاهدنى ؟

— على ماذا ؟

— أن نذهب معاً إلى . . الشرق ؟

فتردد الفتى قليلا ثم نظر إلى كيان الرجل الواهى :

— نعم ، عندما تسترد كل صحتك .

— إنى أشعر اليوم أنى قد شفيت، ان صحتى اليوم تسمح لى أن اسافر، اليوم بالذات . اسمع : ان لدى فى هذا الصندوق مبلغاً من المال ادخرته يكفى نفقات السفر ، وسأخرج اليوم أبحث عن مشترٍ لهذه الكتب وهذه الأمتعة . . لست فى حاجة إلى كتب بعد اليوم ، إنما أنا فى حاجة إلى . . إلى هواء وفضاء . . وصفاء . .

وخشى محسن أن تنمو الفكرة فى رأس هذا المريض، فيرتكب حماقة تسىء إلى صحته . فلم يبد تحمساً لما قال . . ثم أراد أن يثنيه عن عزمه فقال :

— أرى أنك تقسو فى الحكم على الغرب يامسيو ايفان.

مهما يكن من أمر ، فان اوروبا قد وصلت بالعلم البشرى إلى قمم لم يصل إليها .

فلفظ الرجل ضحكة سخرية :

ـــ من قال لك ذلك ؟ أتعرف ما هو العلم أيها الفتى ؟ ان العلم « علمان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفى » . وان أوروبا حتى اليوم طفلة تعبث تحت أقدام ذلك « العلم الخفى » الذى كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به حقيقة إلى قمم . أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها . إلا أن طاقة الآلة المفكرة محدودة ، وان كل وسائل العلم الظاهر هى أعضاؤنا وحواسنا الظاهرة وتلك ليس لها من الدقة مايقتنص غير الظواهر التافهة من ظواهر الطبيعة والكون ، مهما تعاونها الآلات والعدسات . . كل هذا العلم الحديث الذى يبهرك ليس فى حقيقته غير « طريقة » و « أسلوب » . . . نعم إن الجديد حقاً فى العلم الأوربى الحديث هو « أسلوب » التفكير المنتظم و « طرائق » البحث العقلى المرتب . أما أكثر من ذلك

فلا . وأما أن نسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا وصولا إلى قمم المعرفة البشرية فتلك هى السخرية الكبرى . إن قمم المعرفة البشرية هى فى مجاهل ذلك « العلم الخفى » الذى لم يدخل قط عقل أوروبا . لأن وسائلها كما قلت لك لاتهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية . ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة « السطحية » لأنها هى الحقيقة . إن عين العلم الأوروبى لاتقع دائماً إلا على سطح الأشياء ، ككل عين. إنها مدنية لاتدرك ولاتعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها ، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس ، وإنى أصر على أن هذه المدنية الكبيرة إن هى إلا « مدنية ناقصة » لانها لاتعرف الحياة إلا فى « عالم واحد » . أريد أن أهرب إلى البلاد التى تعيش فى « عالمين » تلك البلاد التى ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم « العلمين » .

وسكت الرجل قليلا ، ولمح محسن التعب على وجهه فقال له :

— لا تتكلم كثيراً . أرجو منك ذلك . حسبنا ما حصل فى المرة السابقة . .

— لن أتكلم ، كفى كلاما . ولكنى سأفعل ، إلى العمل ...

ثم تحامل ونهض قليلا مستنداً إلى الحائط فأسرع إليه محسن :

— إلى أين ؟

— أرتدى ثيابى ، لأخرج فأبيع هذه الكتب وأتهيأ للسفر . . .

— ليس الآن ، ليس الآن . . إنك متعب .

— دعنى ، أيها الشاب ، سنذهب إلى الشرق ، أريد أن أرى جبل الزيتون وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء . .

— وتترك هذه البلاد . . وهذه الحضارة . . وتترك « بيتهوفن » . آه يا مسيو إيفان ! إنك تستطيع أن تقول كل شىء عن الغرب فأسمع لك . ولكن « بيتهوفن » ها هو ذا نبى

حقيق . ها هو ذا رسول للمحبة والسلام خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين . . وأن يطهر الإنسانية وأن ينير القلوب . .

فالتفت الروسى إلى محسن قائلا فى قوة :

— بيتهوفن! بيتهوفن . نعم بيتهوفن ، وهاندل، وموزار، وهايدن ، وجان سباستيان باخ ، وميكل آنج ، ورفاييل ، ورمبرانت ، وپاسكال ، وسان توماس وكوپرنيك ، وجاليليه ودانتى . . الخ الخ كل أولئك إن هم إلا زهرات يانعات فى حديقة المسيحية الغناء !

ثم وضع يده على كتف محسن المطرق الساهم :

— هلم إلى المنبع ! إلى المنبع ؟ إلى هناك . . إلى هناك .

ثم ترك الفتى فى اطراقه ، وتحامل متكئاً على الحائط يبحث عن حذائه وسترته . . ومرت فى رأس محسن خواطر وبدت له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأسه وقال لصاحبه الروسى :

— ألم تر الشرق قط من قبل ؟!

فأجاب الرجل وهو يضع حذاءه فى احدى قدميه :

— لم أره قط إلا فى أحلامى .. ولكنى لن أموت قبل أن أراه . . .

فأطرق محسن مرة أخرى ، وهم أخيراً أن يرفع رأسه ليقول لايفان :

— مهلا ، مهلا أيها الصديق ! أن ذلك المنبع الذى تريد أن تراه ، وتلك الأنهار التى تريد أن تشرب منها قد تسممت كلها . ان « الفتاة الشقراء » يوم حقنت فخذها بالمورفين السام لم تترك أبويها سالمين . لقد قضى الأمر ، ولم يعد هنالك نبع صاف . فان الزهد قد ذهب كذلك من الشرق . وان رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات وقبض المرتبات وتورد الوجنات من النعم والمتع . وأن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هى اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية يثير منظره الضحك كما يثيره منظ قردة اختطفت ملابس سائحين من مختلفى الأجناس وصعدت بها فوق شجرة ترتديها وتقلد حركات أصحابها . وان التعليم العام للقراءة والكتابة

وحق التصويت والبرلمان ، وكل هذه الافكار الأوروبية قد أصبحت فى الشرق اليوم مبادىء ثابتة يؤمن بها الشرقيون ايمانهم بل أكثر من ايمانهم بمبادىء الاديان وأنه لمن السهل أن تقنع شرقياً اليوم بأن دينه فاسد ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى» هى عجلة «إبليس» التى يقود بها الأنسانية إلى الدمار ... أو أن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء وانك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرق عظمة «السماء». ولا تستطيع مطلقا أن تقتلع منه عظمة «العلم الأوروبى الحديث»، وانه لمن اليسير أن تسفه عند الشرق الان «رسالة» الأنبياء، ولا يمكن أن تسفه لديه «رسالة» القوة المادية الحديثة ! بل من العجيب أن هذه الأفكار والمبادىء التى تعتبر فى الشرق اليوم ثابتة ثبوت الآيات المنزلة قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم وينقضونها ، وهى ما تزال حافظة عندنا كل قوتها . وأن المدفع قد ينطلق فى أوروبا ضد بعض هذه الأفكار ونرى ضوء لهبه ولكن الصوت لا يصل

إلى آذاننا لا لبعد المسافة بل لأن آذاننا لا تسمع وقلوبنا لا تعى. لقد كانت «الحقنة» شديدة الفعل والأثر. نعم، ولا أحد يدرى هل أوروبا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم ناقع · سرى وما زال يسرى فى شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية فى النفوس. فشبان الشرق اليوم عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة والبطولة لم يتجهوا شطر «غاندى» ولكنهم اتجهوا بعيون كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسولينى» ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباسا لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطا من القطن يصنعونه بأيديهم. لكنهم ارتدوا القمصان الأوروبية ذات الألوان! إذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا فى قلوب الشرقيين!

نعم، اليوم لا يوجد شرق!! إنما هى غابة على أشجارها قردة تلبس زى الغرب على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا ادراك.

لم يجرؤ محسن أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه الروسى. فقد أدرك أن هذا الرجل الذى لم يستطع شىء فى الغرب أن يشفى نفسه القلقة الحائرة، قد وضع كل أمله فى الشرق. وقد صنع للشرق فى رأسه صوراً عظيمةً هى كل أمله الباقى، وان كشف الحقيقة لعينه الآن أفظع طعنة يقتل بها هذا المسكين. فتركه فى خيالاته. ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع صاحبه، فألفاه ملقى على ظهر الصندوق ورأسه الى الحائط وفى إحدى قدميه الحذاء. فأخذه روع لمرآه وأسرع إليه:

— ماذا بك؟ مسيو ايفان؟ ماذا بك!

فقال الرجل فى صوت كالحشرجة:

— فات الأوان!

— أى أوان؟

— اذهب أنت وحدك... الى... هناك...

— أأستدعى لك الطبيب، يامسيو ايفان؟ أأطلب لك...

— لا.. لا تفعل شيئاً.. انى.. أعرف نفسى..

ومال رأسه وانطفأ النور الباقى من عينيه لكنه تحامل وقال فى صوت لايكاد يسمع :

— اذهب أنت ياصديق ... الى هناك ... الى النبع ... واحمل ذكراى وحدها معك ... وداعا ...

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0071190848

SPADE

LOOK FOR BARCODE

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES